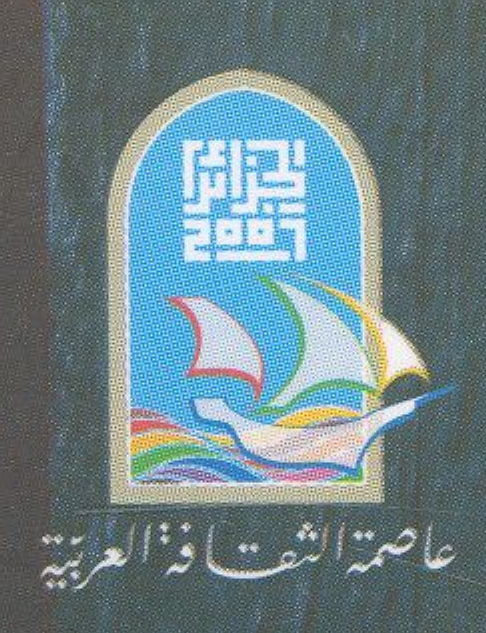
أحمد منّور



الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين

في القرن التاسع عشر



إهـــــــداء٢٠٠٨
وزارة الثقافة
الجمهورية الجزائرية

الجـزائـر
في كتابات الأدباء الفرنسيين
في القرن التاسع عشر

- **المؤلف:** أحمد منوّر
- **العنوان:** الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر
- **السنة:** 2007
- **تصميم الغلاف / الإخراج:** Simple Production
- **الايداع القانوني:** 2504 - 2007
- **ردمك:** 978-9947-24-275-9

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007

يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

الجزائر
في كتابات الأدباء الفرنسيين
في القرن التاسع عشر

اختار النصوص وترجمها وقدم لها
الدكتور أحمد منور



فهرس المحتوى

لماذا هذه الترجمة؟

إن للمترجم رسالة عظيمة في المجتمع يستطيع أن يضطلع بها على الوجه الأكمل والمفيد، إذا أجاب بوضوح على ثلاثة أسئلة مهمة هي: لماذا يترجم؟ وماذا يترجم؟ ولمن يترجم؟ فالسؤال الأول يتعلق بأهمية الترجمة باعتبارها وسيلة نقل أساسية للمعارف والمعلومات، والهدف الذي يتوخاه منها، والأمر هنا لا يتعلق بأهمية الترجمة بشكل مطلق –لأنه لم يعد هناك أحد يماري في أهميتها وفي دورها العظيم في نقل المعارف والعلوم الإنسانية قديما وحديثا– ولكن الأمر يتعلق بتحديد الهدف من ترجمة بعينها يزمع القيام بها، والوسائل العملية الكفيلة بتحقيقها. ومن هنا يأتي السؤال الثاني: ماذا يترجم؟ فالترجمة اختيار وأولويات، لا رغبات ونزوات، لاسيما إذا كانت المعارف هي من الكثرة والتنوع –مثل ما هو الحال عليه اليوم– بحيث يحتار المرء أيها يختار، وأيها الأفضل، ولا أقول أيها الأفيد أو الأنفع؟ لأن المعرفة بصفة عامة نافعة ومفيدة –وقد يتعلم المرء من أخطاء الآخرين وينتفع من تجاربهم الفاشلة– ولكن الفائدة نسبية في كل شيء، فما هو مفيد جدا لغيري قد لا يكون مفيدا لي بالدرجة نفسها، وذلك بحسب الظرف والحاجة إليه، وقد يكون غير مفيد لي بالمرة، إذا كان لا يتفق مثلا مع قيمي الروحية ومثلي العليا.

أما لمن أترجم فهذا سؤال مرتبط بدوره ارتباطا جدليا بالسؤالين السابقين، إذ لا يمكن أن يقع الاختيار على نص معين للترجمة، أو تحديد الغرض من ترجمته، دون ربطه بالقارئ الذي سيقرأه، فالمترجم يضع في ذهنه دوما قارئا مفترضا يوجه إليه ما يترجمه، وهذا القارئ قد يكون فئة نوعية معينة مثل طلاب الثانويات أو الجامعات، كما يمكن أن يكون فئة محددة من أصحاب الاختصاص في مجال معين، وقد يكون موجها لشريحة أعرض من الناس، وهذا حسب الحاجة إليه، التي تتراوح بين الحاجة الماسة، ومجرد التثقيف والترفيه.

وفيما يخص النصوص الموجودة بين أيدينا، والتي أعطيتها عنوان "الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر" فإن دافعي إلى ترجمتها يعود في المقام الأول إلى اقتناعي بقيمتها الكبيرة بالنسبة لتاريخ الجزائر في فترة الاستعمار، وأعني بالخصوص التاريخ الاجتماعي والثقافي للجزائر في الفترة المذكورة، فضلا عن اقتناعي بقيمتها الأدبية الرفيعة، من حيث أنها كتبت بأقلام كتاب كبار، مشهود لهم بعلو القامة في مجال فنهم. ولا يفوتني أن أوضح هنا بأنني جمعت هذه النصوص من مصادر متفرقة، واخترتها بعناية، من جملة ما كتبه أصحابها عن الجزائر، وهي ليست أفضل ما كتبوه، ولا هي كل ما كتبوه عن الجزائر، ولكن الضرورة اقتضت أن يكون هناك اختيار، مراعاة للغرض المتوخى منها، ولحجمها الذي أردت أن تكون عليه، ولطبيعة موضوعاتها.

لقد بدأ اهتمامي بما كتبه الأدباء الفرنسيون عن الجزائر منذ مدة طويلة، واكتشفت الموضوع بمحض المصادفة، حين اشتريت ذات يوم "رسائل طاحونتي" و"حكايات الاثنين" للكاتب الساخر والساحر ألفونس دودي، صاحب "عنزة السيد سوكان" (La chèvre de Monsieur Seguène) التي قرأناها ونحن صغار، وأعجبنا بها أيما إعجاب، ففوجئت بما كتبه هذا الكاتب عن مليانة، وعن برتقال الجزائر، و"الجراد" و"وسام الآغا"، لأكتشف في وقت لاحق أنه كتب، بالإضافة إلى ما ذكرته، رواية كاملة من وحي زيارته للجزائر هي "تارتاران دو تاراسكون".

وبهذه الكيفية نفسها اكتشفت ما كتبه الكتاب الآخرون عن الجزائر أمثال: "كي دو موباسان" و"تيوفيل كوتي" و"بروسبير ميريمي" –ممن تضمن عملنا هذا نصوصا لهم– و"أوجين فرومنتين" و"كوستاف فلوبير" و"جول لوميتر" و"أندري جيد"، وغيرهم ممن يضيق المجال عن ذكرهم جميعا، وهو ما يشكل تراثا أدبيا كبيرا، بغض النظر عما يحتوي عليه من تصورات مخطئة، وأحكام مسبقة، ومواقف متحيزة ضد الجزائريين، ومتباينة من كاتب إلى آخر. مع العلم أنني وقفت مطولا أمام هذه المسألة، وقلبتها من جميع أوجهها، السلبية والإيجابية، قبل أن أقدم على الترجمة.

وأقنعت نفسي في آخر الأمر بأهمية هذه النصوص، لكونها شهادات حية، فيها الكثير من الحقائق مثل ما فيها الكثير من

الأباطيل، وعلى من يريد الحقائق أن يتسع صدره للانطباعات الشخصية للكتاب، ولآرائهم وتعليقاتهم. ويجب أن لا يغيب عن ذهني، وأنا أتعامل مع هذه النصوص، أنني أقرأ لكتاب فرنسيين، بمعنى أنهم ينتمون دما، ولحما، وشعورا، وثقافة، ولغة، وحضارة، ودينا، إلى بلد المحتل ومجتمعه وثقافته وحضارته، وأنني أتعامل مع أناس لا مع أنبياء ولا رسل ولا ملائكة، ولأجل ذلك لا أنتظر منهم أن يكونوا منصفين وعادلين إلى الحد الذي يجعلهم يتخلون عن مشاعرهم الذاتية، وعن انتمائهم القومي، ليندّدوا بالاستعمار، ويقفوا في صف الجزائريين، خاصة أن الكثير منهم كان يؤمن فعلا بالرسالة الحضارية التي كان الاستعمار الأوروبي يدعي أنه جاء لنشرها في البلاد المستعمرَة.

هذا هو الذي جعل تيوفيل كوتيي، على سبيل المثال، الذي جاء سنة 1845 يبحث بحماس شديد عن الشرق وأجواء ألف ليلة وليلة في الجزائر، لا يتأسف كثيرا على التحول السريع في ملامح مدينة الورود البليدة، التي يقول عنها إنها أخذت تفقد بسرعة سحرها الشرقي، وطابعها المعماري الأندلسي، لتتحول إلى مدينة أوروبية، ويقف في مقابل ذلك مطولا مع حدث تدشين خط السكة الحديدية بينها وبين العاصمة، باعتباره مظهرا من مظاهر الحضارة الحديثة، وإنجازا من منجزات فرنسا في الجزائر، وهو الإنجاز الذي ما كان ليتم ((لولا السواعد القوية لجيشنا)) –حسب تعبيره– والذي يبشر بمستقبل مليء بالآمال لما يسميه "فرنسا الإفريقية".

وهذا أيضا ما جعل الفونس دودي في مذكرته "الجراد" يشيد بإنجاز المستوطن الذي نزل ضيفا عليه في مزرعته، ووقف مشدوها أمام الضيعة، يتأمل أشجارها وثمارها وأزهارها وماءها وإسطبلاتها وحظائرها وخيراتها الكثيرة، ليقول بعد ذلك: ((.. وكنت أفكر في نفسي أنه منذ عشرين عاما، حين نزل هذا الرجل الشجاع وزوجته في هذا السهل الصغير من الساحل، لم يجدا سوى "برّاكة" حارس قبيحة، وأرض مهملة، تنتشر فيها أشجار نخل قميئة وعوسج، فكان عليهما أن ينشئا كل شيء، ويبنيا كل شيء. وفي كل لحظة يثور فيها العرب كان يتحتم عليهما أن يتركا المحراث ليحملا البندقية..أضف إلى هذا الأمراض، ورمد العيون، وأنواع الحمى المختلفة، وسنين الغلة العجاف، وعشوائية نقص الخبرة)) كل هذا ليستدر عطف القارئ على هذا المستوطن "المسكين" حين يهاجمه الجراد، فيترك أرضه قاعا صفصفا، وليصب جام غضبه على الإدارة التي يصفها بـ"المنغلقة التفكير" لأنها لا تقدم يد المساعدة له ولأمثاله من المستوطنين الشجعان.

لكن الكاتب نفسه يقدم لنا في ثنايا قصته هذه وفي أقاصيصه ومذكراته الأخرى تفاصيل تكشف لنا – بعيدا عن انطباعاته الشخصية، وتعاطفه مع المستوطنين – عن حقائق على قدر كبير من الأهمية، بحيث تناقض أحيانا أقواله وانتقادات، ومنها مثلا أنه يتحدث في مذكرة "الجراد" نفسها عن إرسال السلطات العسكرية، على جناح السرعة، بكتيبتين من الجنود القناصة، مع ما يلزمهم من البارود والأبواق لنجدة المستوطنين...

ويقول ((وتغيرت حينئذ طريقة التقتيل. فعوض أن يسحق الجنود الجراد كانوا يحرقونه بنشر سحائب بارود طويلة الذيل)). ومعنى هذا أن هؤلاء المستوطنين الذين يصفهم بـ"المساكين" كانوا يتلقون كل الدعم من السلطات، بما في ذلك الدعم العسكري إذا تطلب الأمر ذلك.

وفي المذكرة نفسها يتحدث الكاتب عن مزارعين استقدمهم صاحب المزرعة من منطقة "البورغون" بفرنسا متخصصين في زراعة الكروم، بالإضافة إلى عمال من بالما مايوركا، ومن مالطا، ومن إيطاليا، ويذكر إلى جانبهم فلاحين قبائليين يصف أثوابهم بـ"الرثة"، مما يستنتج منه أن العامل الجزائري كان – حين يجد فرصة عمل – في آخر السلم من حيث الأجر.

ومن خلال ما رواه لنا عن مدينة مليانة، وحكاية الخلاف الذي شهد الكاتب نفسه أحد فصوله بين يهودي وأحد القياد، كشف لنا عن نوع المجتمع الهجين الذي أوجده الاستعمار في المدن الجزائرية الصغيرة، من مختلف الجنسيات الأوربية ممن ذكرنا بعضها آنفا، بالإضافة إلى السكان الأصليين من عرب وأتراك ويهود، وكيف تتصارع فيه المصالح، والأطماع، والأهواء، وتنمو فيه مختلف الآفات الاجتماعية، وكل أنواع الاستغلال والاحتيال، والنشاطات الطفيلية.

ويحدثنا في هذا الصدد عن شخصية طريفة وطفيلية بامتياز هي شخصية "الوكيل" التي يقول عنها: ((إنه محامٍ، ورافع دعاوى، وسمسار، وخبير، ومترجم، وماسك حسابات، ومنفذ مهمات، وكاتب عمومي... ويكفي للقيام بذلك أن تكون ملما

يقليل من اللغة الفرنسية والإسبانية والعربية... ووكلاء الأعمال في الجزائر كثيرون كثرة الجراد تقريبا)) وهذه المهنة ((تسمح لصاحبها بالدخول إليها من بابها الواسع، دون اختبار أو كفالة أو تدريب... إذ يمكن لأي كان أن يصبح وكيل أعمال في الجزائر)).

وفي القصة نفسها يصور لنا الكاتب الكثير من المشاهد، عن الحياة اليومية للبلدة، مثل أنواع التسلية التي كانت تقدم فيها، كالفرقة الموسيقية التي تعزف ألحانها في الساحة العامة، وقاعة المسرح التي كانت تقدم فيها العروض المسرحية، وهي في الأصل إسطبل هيئ لكي يكون صالة عرض، كما صور الكاتب مشاهد أخرى أقل إشراقا من المشاهد السابقة، مثل "فناء الفقراء" الذي اكتشفه الكاتب بالمصادفة قرب المسجد، حين لجأ إليه من المطر، ومثل مشهد ما كان يسمى بـ"المكتب العربي"، الذي كان يستقبل الجزائريين في الشؤون الإدارية، ويديره ضباط وجنود يتحدثون العربية، وكان عبارة عن سوق وفوضى لا مثيل لها.

فإذا أتينا إلى كاتب مثل "كي دو موباسان" فإننا نجده بدوره يقدم لنا من خلال مذكراته وأقاصيصه، التي استوحاها من رحلاته في أماكن متفرقة من الجزائر، الكثير من الحقائق عن الوضع الذي كان سائدا فيها في ثمانينيات القرن التاسع عشر، فهو يقدم لنا أولا نموذجين لنوعية المستوطنين الذين نزلوا بالجزائر وأصبحوا من كبار ملاك الأراضي فيها، أحدهم (أوبال في قصة علومة) كان مقامرا وزير نساء، نزل بالجزائر بعد أن مل حياة المغامرة والمقامرة ليستثمر ما بقي له من مال في الزراعة،

وقد لقي من السلطات العسكرية والمدنية كل الحماية والتشجيع والتسهيلات، وأصبح بفضل ذلك صاحب مستثمرات فلاحية واسعة. والثاني (تريمولان في قصة ذات مساء، في بجاية) الذي تعرض لهزة نفسية عنيفة حين اكتشف أن زوجته تخونه مع أحد معارفه، فهم بقتل زوجته وعشيقها، ثم فضل أن يفر إلى الجزائر، ويبدأ حياة جديدة، وقد نجح في ذلك نجاحا لم يكن يحلم به، بعد أن وجد بدوره كل التسهيلات التي جعلت منه أحد كبار مزارعي الكروم.

ويقدم موباسان في قصة "السلسلة العربية" معلومات هامة عن تركيبة ما كان يسمى بـ"جيش إفريقيا" الذي كان يشكل العمود الفقري للجيش الفرنسي في الجزائر، فيقول على لسان الضابط الذي روى له الحكاية: ((كان رفاقي من رجال العصابات وقطاع الطرق، الذين انتهوا بعد أعمال اللصوصية والتشرد في كل الأصقاع الممكنة إلى الخدمة في أحد فيالق اللفيف الأجنبي، وقد كان جيشنا الإفريقي مليئا بهؤلاء الأنذال، فكانوا جنودا ممتازين ولكن لا ضمير لهم)). ويضيف في مكان آخر متحدثا عن ستة من رفقائه الذين خرجوا في مهمة عسكرية ضد إحدى القبائل ((.. وكان في نطق رفقائي كل أنواع اللهجات الممكنة، فقد كان من بينهم إسباني، ويونانيان، وأمريكي، وثلاثة فرنسيين، أما محمد فريبوي فقد كان يلثغ الراء بكيفية لا تصدق)). وهو هنا يتحدث عن مرتزق تركي كان يقود الفوج. أما عن المجزرة التي ارتكبها هؤلاء فإن وصف زميلهم لهم باللصوص وقطاع الطرق، والأنذال، ومنعدمي الضمير يكفي للتدليل على نوعية الفظائع التي كانوا يرتكبونها،

وفي هذه الحالة فإن تلخيص القصة هنا لا يفي بالغرض، ولا يغني عن قراءتها كاملة.

إن الحقائق التي يمكن أن يكتشفها القارئ في هذه الصفحات لا يمكن حصرها في هذه العجالة، وهذه الأمثلة التي سقناها ما هي إلا مجرد عينات، حيث نلاحظ أن الحقائق تشي فيها بنفسها عن نفسها، والأمر لا يقف عند هذا النوع من الحقائق التي ذكرناها، إذ يمكن للقارئ أن يكتشف في ثنايا النصوص حقائق ومعلومات أخرى كثيرة تتعلق بالأنشطة اليومية للناس، وبأنواع اللباس، والحلي، والأطعمة، والآثار، والمعمار، وما إلى ذلك.

وعليه فإن القارئ يستطيع أن يقوم بعملية فرز أثناء القراءة، ليفصل الحقائق عن انطباعات الكاتب وآرائه وتعليقاته، كما يستطيع أن يفرز ويميز أيضا ما يأتي من ذلك على لسان شخصياته، ومن ثمة يستطيع أن ينصرف إلى اللب مباشرة، ويتجاهل القشور، كما يستطيع أيضا أن يقرأ صفحات كثيرة في هذه النصوص بمتعة حقيقية، لاسيما تلك المتعلقة بوصف الطبيعة، أو تصوير معالم المدن والحياة الاجتماعية، ونجد ذلك على الخصوص فيما كتبه موباسان، ودودي، حيث أبدع كلاهما في ذلك، وبلغ فيه قمة التصوير الفني أحيانا. وآمل أن أكون قد وفقت في نقله إلى العربية.

بقي أن أشير أنني عملت ما استطعت على تقريب هذه النصوص إلى القارئ عن طريق الشرح والتوضيح في الهوامش لكل ما رأيت أنه يتطلب ذلك، خاصة منها بعض الإشارات

المتعلقة بالميثولوجية اليونانية، أو الدين المسيحي، أو تاريخ فرنسا، أو بعض الشخصيات الأدبية والفنية التي يشير إليها الكتاب إشارات سريعة، باعتبارها أشياء معروفة للقارئ الفرنسي في زمانهم، علما أن الحياة قد تغيرت اليوم كثيرا عما كانت عليه في القرن التاسع عشر، حتى بالنسبة للقارئ الفرنسي، ناهيك بالقارئ الجزائري، وبعض ما كان بالأمس القريب من الأمور المعروفة، صار اليوم من الألغاز المستغلقة. وأملي مرة أخرى أن أكون قد وفقت في مسعاي، ولم أثقل على القارئ بكثرة الشرح.

– *والله ولي التوفيق، والسلام.*

رقصة الجن * (1)

ثيوفيل كوتيي

Théophile Gautier
La danse des Djinns

تيوفيل كوتيي 1811 – 1872 ناقد فني ومسرحي وروائي رومنتيكي، اكتسب شعبية كبيرة برواياته التاريخية، واشتهر بالخصوص بروايته "القبطان فراكاس".أصبح في ستينيات القرن 19 من كبار منظري مذهب الفن للفن.كان مغرما بالرحلات، ونشر الكثير من المقالات عن زيارته للعديد من البلدان، ومنها زيارته لمدينة قسنطينة في صيف، 1845 التي تمت باقتراح من أحد الناشرين الذي تحمل مصاريف الرحلة والإقامة، واستغرقت زيارته للجزائر ستة شهور، ونشرت له بعض المجلات فصولا متفرقة عنها بعناوين مختلفة قبل أن تجمع وتنشر في كتاب سنة 1865 بعنوان "في إفريقيا"، ثم أعيد نشرها في وقت لاحق بعنوان "رحلة إلى الجزائر" ومن هذه الطبعة أخذنا "رقصة الجن" التي وصف فيها إحدى حفلات العيساوة التي اشتهرت بها مدينة قسنطينة، وألحق بالوصف حكاية شبيهة بحكايات ألف ليلة وليلة كان هو بطلها مع راقصتين يدعى أنه بات عندهما بعد أن تاه ليلا في أزقة قسنطينة الضيقة.

عندما وصلت إلى قسنطينة كان النهار على وشك الانتهاء، وكانت درجات اللون البرتقالي للغروب وهي تلتقي مع زرقة السماء تحدث إشراقات لونية فيروزية مخططة ببعض الأثلام الضيقة من السحب، داكنة من فوق، تضربها بعض الانعكاسات الضوئية المائلة إلى الحمرة مثل بعض أنواع السمك. وفي عمق هذه السماء المفترسة –لأن السماوات لها

* ملاحظة: كل التوضيحات التي سيجدها القارئ في الهوامش هي من وضع المترجم.
1) وردت هذه القصة ضمن كتاب:
Théophile Gautier "Voyage en Algérie" Ed,La Boite à Documents. Paris 1989

ملامحها مثل الأوجه البشرية– كان تحليق النسور واللقالق يرسم فواصل كبيرة سوداء، وأسوار المدينة ترتسم في زوايا داكنة في أعلى الصخر الذي تسلقته بمشقة.

وكانت هناك غابات عظيمة من نبات التين الشوكي، التي كانت فدراتها تشبه في الظل فقرات حوت –على وجه التقريب– نفق على الشاطئ، وأسياف وحراب من الصبار توشي الطريق مثل قطيع من الوحوش الخرافية، أو عصابات من الأعداء كامنة، وبين الحين والآخر كان يمر بي رجل بدوي يركب حصانا هزيلا، مدمًّى البطن، فيكاد يلمسني بثنايا برنسه المرفرف مثل كفن شبح.

كانت الأرض والسماء تنذران بالخطر، والطبيعة تبدو معادية بشكل غامض، وما لا أدري من إحساس بالخطر غير المحدد كان يحوم في الهواء. هناك أويقات تكون فيها العزلة غير قابلة للإزعاج، ويكون الظل فيها مغلقا على ذاته، حانقا على المسافر الذي يمر فيه، ولكن، وحيث أن لا خطر في الظاهر كان يتهددني، فهل سأشعر بالارتياح حين أرى على هضبة الجبل الذي يشكل قاعدة مدينة قسنطينة ضريح المرابط الذيجعلته لوحة "هوراس فيرني"[2] ذائع الصيت.

إن مدينة قسنطينة مثلها مثل "الحامة" و"روندا" في إسبانيا، قد بنيت على هيئة نسر في أعلى صخرة هائلة، تعزله عزلا تاما تقريبا هوة يتلوى فيها نهر الرمال، ولا يوصلها بالأرض المحيطة بها إلا جسر ولسان من الأرض يشكل نقطة الدخول الوحيدة إلى المدينة. إن مدينة أحمد باي، حتى وإن دخلت تحت سيطرة

2) هناك هوراس فيرني الأب (1758 – 1836) و هوراس فيرني الإبن (1789 – 1863) وكلاهما رسام، ولا ندري أيهما يقصد الكاتب.

الفرنسيين فهي لم تفقد أي شيء من طابعها العربي، فقد حافظت على شوارعها الضيقة، المتداخلة ككبة من الخيط لا يمكن فردها، وعلى مآذنها السامقة، وبيوتها الخالية من النوافذ، وأبوابها الواطئة، ومظهرها الشرقي.

قال لي من كان مُوصَى عني: لقد جئت في الوقت المناسب، أنت المولع بالأشياء الخارقة للعادة.. وكان هذا بعد ما تناولت وجبة هي أشهى ما يمكن أن يقدمه فندق "أوروبا"، وهو النزل الوحيد في المدينة، حيث أذهبت بها أتعاب يوم سفر تحت شمس إفريقيا، في سويداء شهر أوت.

– ستقام هذا المساء رقصة الجن في بيت أعرفه، ويمكنني أن أدخلك معي.. هذا إذا كنت لا ترغب في شيء أفضل يكون أكثر حكمة، وهو أن تنام في هدوء، عوض أن تذهب لترى التكشير الرهيب والتشنجات الغريبة.

– أعترف لك بكل تواضع يا صديقي العزيز أنني أجهل ما ذا تعني رقصة الجن، وأن ما تقوله قد أثار فضولي.

ورد علي صديقي في لهجة فيها بعض الارتياب والسخرية المبطنة:

– في فرنسا يعتقد الناس ببعث الأموات: فرؤية فأر يهرول خلف حائط، أو قطعة قماش مدلاة بشكل كئيب في ضوء القمر، أو أنين ريح في مدخنة موقد تفسر كلها بكلمة واحدة هي "البعث"، وإقامة بعض الصلوات تجلب الراحة للأرواح المعذبة، أما هنا فيعتقدون في الجن، هذا الاسم البرُّوكي الذي لا بد أن قصائد فيكتور هيكو الغنائية قد جعلته مألوفا بلا ريب

لديكم، وعرَّفتكم على وجه التقريب ماذا يعني[3] أن الجن هم أرواح ليلية يطيب لها أن تزعج سكان بعض البيوت التي تكون قد ارتكبت فيها قديما جريمة ما مجهولة، أو يكون أحد الحساد قد أصابها بشر من عينه الحولاء، بالرغم من الأيدي الخضراء والحمراء التي تثبَّت على الحيطان البيضاء المطلية بالجير، لحمايتها من الحسد. وللعمل على إخراج الجن منها تقام على أصوات "الدرابيك" رقصات جامحة ورمزية مقززة غاية التقزز، مما يدفع بشياطين أكبر منهم قرونا ومخالب للهرب. إن فطنتك لا تحتاج إلى شرح أكثر من هذا، فقم واتبعني، لأن الحفل يوشك أن ينطلق.

وأشعل صديقي قطعة شمع أدخلها في فانوس من تلك الفوانيس الورقية الملونة، التي تتمطى وتنكمش بطواعية، وقد جعلتها الاحتفالات العامة في فرنسا شيئا مألوفا منذ غزو الجزائر، وقال لي:

– لن أقول لك مثل هنري الرابع[4] ((لا تغفل عينك عن ريش قبعتي الأبيض، ليقودك إلى طريق المجد)) ولكن أطلب منك أن تتبع ضوء فانوسي مثل ما تهتدي بالنجم القطبي، لأن الحضارة لم تنعم بعد على قسنطينة بمنجزاتها، فجهل الناس هنا بزيت الكاز، وحتى بالفوانيس العاكسة، ليس أقل من جهلهم بها في عهد محمد، والشوارع هي من الظلمة والتعقيد بحيث تجعل الضياع فيها أمرا هينا.

---

3) البروكي من الكلمة البرتغالية "باروكو" وتعني جوهرة غير منتظمة الشكل، وقد استعيرت الكلمة لتدل على أسلوب فني وأدبي شاع في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا اللاتينية في القرنين 17 و18م وقد نظم فكتور هيكو العديد من القصائد بهذا الأسلوب ونشرها في ديوان كامل بعنوان: Odes et Ballades.

4) أحد ملوك فرنسا الذين ينتمون إلى أسرة «البوربون» وقد عاش ما بين 1589 و1610.

سنرى بعد حين أن توصيات صاحبي لم تكن بلا معنى.

ورحنا نتبع أزقة هي من الضيق بحيث أن حمارين محملين لا يستطيعان المرور فيها في الاتجاهين، وكانت البيوت ذات الطابق العلوي البارز إلى الأمام، التي تشبه درجا مقلوبا، غالبا ما تلتصق في الأعلى لتعترض نور السماء الليلي الضعيف. وهناك ممرات مسقوفة تشبه الأنفاق، وكان ظلنا، الذي يعكسه الضوء المضطرب للفانوس، يتأرجح على أجزاء من حيطان خشنة، وعلى أبواب قديمة موصدة، تشبه أبواب السجن، كأنما كنا نمشي في"المياه الغزيرة" العجيبة والغريبة لـ"رامبراندت"[5] حيث يأخذ الواقع شكل الكابوس. كنا نسير في الظل الأصفر للفانوس، ومن خلفنا ومن أمامنا الظلام الدامس، وبين الحين والآخر كان أحد العرب المتأخرين ينزلق مع الحيطان، ملفوفا في كفنه الباهت البياض، وكان هناك كلب مستيقظ يصدر عواء متألما وهو يتنقل زاحفا مثل يرقة بشعة خارج شعاع الضوء، ليبتعد بعض الشيء، منطويا مثل كرة على ذاته.

وأحسست بتلك اللذة القلقة التي تجعل قلوب بطلات "آن رادكليف"[6] تخفق وهن يتجولن، وبيدهن سراج، عبر الممرات الضيقة التي لا تنتهي لقصورهن المليئة بالرعب والأشباح.

ووصلنا أخيرا قرب بيت تتسلل عبر شقوق بابه بعض الخيوط الضوئية التي كانت تنعكس في شكل لطخات غريبة على الحائط المقابل. في هذا البيت أقيم الحفل. وبعد أن تبادل مرافقي كلمات بالعربية مع رجل طويل، أسمر بشكل غريب،

5) المياه الغزيرة هي لوحة فنية لرامبراندت الرسام الهولندي المشهور من عهد النهضة ، عاش بين سنتي 1606 و1669م.

6) آن رادكليف روائية بريطانية (1764–1823) مؤلفة روايات ذات طابع بروكي، وأشهر أعمالها التي يشير المؤلف هنا إلى أجوائها هي رواية "أسرار رودولف".

حيث تتيح سحنته الداكنة باللمعان لصفين من الأسنان غير المنتظمة، والبيضاء بياض الافتراس.

وأدخلنا إلى فناء محاط برواق من الأعمدة الصغيرة التي تستند عليها أقواس بشكل قلب، شبيهة في بنائها بأفنية البيوت الأندلسية، التي هي ليست في النهاية إلا تقليدا للهندسة الموريسكية.

كان هناك حوالي عشرين مصباحا تسبح في الزيت، مدلاة في أسلاك نحاسية، تركز أضواءها على وسط الفناء الذي أخلي للرقص. وتحت الأقواس كانت هناك حوالي سبع أو ثماني عجائز يقرفصن مثل القردة، هن بلا شك بنات عم ساحرات "ماكبث"[7]، رغم عيونهن التي تشبه عيون البوم، وتلمع وسط هالة من السخام[8]، وأنوفهن التي تلمع مثل مناقير الطيور الجارحة، وحواجبهن الضخمة السوداء، ولون بشرتهن الذي يشبه بطون الأحذية المدبوغة بستين عاما من الشمس، التي تدل بلا أدنى شك أنهن قد دسن بالأحرى رمال إفريقيا وليس خلنج "دينسنان".

بعض هؤلاء العجائز كن يهوديات، كما تدل عليهن عصابة المخمل الأسود المزينة بالقطع الذهبية، التي تلتصق بخدودهن المغضّنة، ويتدلى طرفاها إلى الخلف على أكتافهن النحيلة: واليهود كانوا دوما سباقين في أعمال السحر، وحضورهم مميز دوما في تجمع السبت[9].

7) ماكبيث هو عنوان مسرحية شكسبير الشهيرة التي تحمل الاسم نفسه.
8) السخام هو سواد الفحم الذي يلتصق بأواني الطبخ، ويقصد به الكاتب "الكحل".
9) هو تجمع أسبوعي للسحرة والساحرات في أمسيات السبت، عند منتصف الليل، ويترأس تجمعهم الشيطان نفسه..

لقد رأيت في إسبانيا العديد من الساحرات العجائز الرهيبات، و"نزوات كويا"[10] يمكن أن تعطي فكرة عنهن لمن لم يزوروا هذا البلد، غير أن هؤلاء يبدين لي أكثر وحشية وفظاظة. تراهن يمسكن بين أيديهن السمراء المغضَّنة مثل أيدي القردة "درابيك" يرحن ينطقن جلودها في غير اكتراث، قبل أن يشرعن في حفل "باخوس"[11].

في الجهة المقابلة تجلس على الطريقة الشرقية أربع أو خمس نساء في مقتبل العمر، يغطين رؤوسهن بتلك المناديل الحريرية ذات الألوان الصارخة، المطعمة بخيوط ذهبية، وهي المناديل التي تحسن النساء الموريسكيات لفها بشكل مغرٍ حول غطاء الرأس المخملي الذي يغطي قمة رؤوسهن، أما جفونهن المسودة بالكحل، والأهداب المصبوغة التي تتصل عند منبت الأنف، فإنها تعطي لجمالهن طابعا غريبا لا يخلو من جاذبية. ويتكون لباسهن من سترات مطرزة وقمصان رقيقة مفتوحة الصدر، وسراويل حريرية تنتهي عند الركبة، ومنديل مطعم بالذهب يستعمل كحزام، وفوطة هي عبارة عن تنورة مفتوحة من الأمام، مشدودة على الكشحين، يزينها منديل مخطط بألوان فاتحة وقطع معدنية لامعة، مع بعض الاختلاف في التفاصيل تعود إلى غنى أو نزوة كل واحدة منهن، وتهتز في آذانهن أقراط طويلة مصنوعة بذوق همجي، وتحيط بعضٌ منهن وجهها بثلاث سليسلات ذهبية تشبه المخانق –وهي موضة خاصة بقسنطينة– تسقط من عروتين من الأحجار الكريمة، ملتصقة بالخدين، وتحيط بالذقن دون أن تلمسه.

10) كويا Goya رسام إسباني شهير عاش ما بين 1740 و1828، وكان يهتم برسم المشاهد الشعبية، و"نزوات" هي إحدى تلك اللوحات الشعبية.

11) باخوس، إله الخمر والخصب عند اليونان.

كان هذا أحسن تعويض لي على ما لاقيته من الغيلان الفظيعة والشياطين المقيتة في سفري الذي أتيت منذ قليل على رسم خطوطه العريضة.

في درابزين البيت الداخلي، الذي يتكون من الجدران الأربعة غير العالية للفناء، تبيَّنت لي في الضوء المضطرب للمشاعل، وفي عمق صفحة السماء السوداء، أشباح حائلة البياض، تقرفص أو تتكئ بالمرافق على الحافة أو تقف، ملتفة في مآزرها مثلما تلتف اللقالق في أجنحتها، جامدة في وقفتها جمود صف من التماثيل الرخامية: إنهن نساء البيت ونساء الجيران اللائي كن يرغبن في حضور العزيمة دون أن يـَرَاهُنَّ أحد، ويرضين فضولهن المشرقي وتحفظهن في الوقت نفسه.

كان هناك بعض الرجال من البدو أو القبائل[12] الذين يعرفون بطرابيشهم المحاطة بعقال من شعر الجمل، يجلسون مقرفصين على أدراج سلَّم يؤدي إلى الطابق العلوي. وأُجلِسنا نحن بالقرب من الأركسترا الهمجية.

وبدأ الحفل في الأول بهمهمة خفيضة الصوت وممططة من النساء العجائز فيما يشبه تعويذة، مدعومة بشخير خافت من الدربوكة، التي بدا على الفتيات الراقصات اللائي كن مصطفات في مكانهن، أنهن يستمعن إليها باهتمام شديد، ولكن دون أن تتحرك أي منهن، وحينئذ ارتفع صوت النسوة الموسيقيات ورحن يَدقُقْن بقوة على جلد الدربوكة المصنوع

12) يقصد الكاتب هنا سكان مناطق جيجل الذين يعرفون في قسنطينة باسم القبائل.

من جلد الحمار، مع حركات الرأس من الوراء إلى الأمام ومن الأمام إلى الوراء مما دل على أن جاذبية الحفل قد انطلقت.

لقد سبق لنا من قبل أن شاهدنا مثل هذه الحركات يقوم بها العيساوة في حوش "قرواو"[13]، وشاهدنا فيما بعد دراويش "سوكتاري"[14] يعيدونها مصحوبة بصراخهم، والظاهر أنها ضرورية للتعصب الشرقي في ممارسة هذا النوع من تمارين التوبة القاسية أو التعاويذ التي تفوق فيما يبدو قوة الاحتمال لدى الإنسان. إنها ولا شك تُحدِث احتقانا مؤقتا للدم في الدماغ، وتوقف الإحساس بشكل غير طبيعي، مما يمنع لدى ممثلي هذه الاستعراضات الدينية العنيفة الشعور بالتعب والألم. وتحت تأثيرات الإيقاع الضاغطة قامت راقصة تمشي الهوينى، وكأنما كانت مأخوذة، مع ارتجاف وهول العرافة الخفي، لتُسلِم نفسها لبخور الموقد، وتقدمت حتى وسط الفناء لتلوي ساعديها في تشنج عصبي، وتستسلم، بعد أن أصبحت مسلوبة الإرادة، بلا أدنى مقاومة، للإله أو الشيطان المستحضر. كانت هذه الراقصة طويلة ومتسقة القوام، جسمها بارز الأنوثة وقوي في غير إفراط. راحت تتلوى تحت ثوب مبهر وبراق تحت الأضواء، في الأوضاع المختلفة للتطورات الأولى للرقصة، التي بدت وهي تقوم بها كأنما كانت مسرنمة[15] من حيث أنها لم تكن واعية بما تفعل. وبدا وجهها الفاتن –الذي لابد أنه وجه بشوش في المعتاد– شاحبا بعض الشيء ومنقبضا، وقد ارتسم عليه تعبير ألم

13) قرواو –إن كانت هي المقصودة– قرية تقع في كنف جبل الشريعة المشرف على مدينة البليدة.
14) سوكتاري أو على الأصح "سكودار" هو الحي الواقع في الجزء الأسيوي من مدينة إسطمبول بتركيا.
15) السرنمة كلمة مركبة تعني السير أثناء النوم.

تقريبا، وكانت أعضاؤها تختلج عند كل هجمة من هجمات الإيقاع، كأنما هي واقعة تحت هزات صاعقة.

وبعد لحظات قامت راقصة أخرى لتأتي قبالتها، وكانت نحيفة، ممشوقة القوام، قصيرة، لا تعدو الرابعة عشر أو الخامسة عشر من عمرها، مازال جسمها الذي كله لطافة يحتفظ بالنحافة الطفولية لسن البلوغ المبكر. وكان لقسماتها، التي كانت في منتهى الرقة وكمال الانتظام، طزاجة تيجان السنابل، ودقة آلة النقش على صفيحة معدن خرجت بالأمس من بين يدي الفنان. مازالت الحياة لم تنل ولم تنهك أي شيء في خطوط محياها الصافي، الذي لولا الحاجبان والأهداب الطويلة التي زادها الإثمد سوادا على الطريقة الشرقية، لخُيِّل إلينا أننا نرى رأس "بسيشي" فاتنة "بومبي" حيا يتحرك[16] وكأنه من أجل أن يوضع لجمالها إطار ذهبي فقد كانت هناك سليسلات تختلج حول وجنتيها في صفوف ثلاثة، تلمع، وتلتصق بأنصاف كويرات من وشيٍ يحيط بغطاء رأسها المخملي.

وضعت نفسها قبالة زميلتها، التي عرفت فيما بعد أنها أختها، وراحت ترعِّش جسدها في ما يشبه تموجات الثعبان الذي يقف على ذيله. إن فن الرقص الشرقي يقوم على مبادئ تتعارض تماما وتلك التي يقوم عليها الرقص عندنا، فالأرجل يجب أن تبقى بلا حراك، والجذع وحده هو المسموح له بالحركة، على العكس

16) بسيشي هي بطلة أسطورة يونانية كانت متزوجة بالإله "إيروس" –حسب معتقدهم– الذي كان لا يزورها إلا ليلا في الظلام، واشترط عليها أن لا ترى وجهه أبدا، ولكنها ذات ليلة خالفت أمره وأشعلت شمعة مكنتها من رؤية وجهه وهو نائم، فغضب عليها وفارقها، ولم يعد إليها إلا بعد أن كفرت عن ذنبها وتحملت محنا كثيرة. أما بومبي فهي مدينة إيطالية قديمة تقع بالقرب من بركان "فيزوف" الشهير، الذي ثار في سنة 89 ق.م وغمر المدينة بالحمم، وقد أصبحت المدينة في القرون المتأخرة مكانا لالتقاء الفنانين من كل أوروبا، التي ألهمتهم بالكثير من الروائع الفنية، والكاتب يشير هنا إلى تمثال شهير يجسد بطلة الأسطورة اليونانية.

تماما من تعليمات أساتذة الرقص في أوروبا لتلاميذهم. إن حركات الوركين، والتواء الصلب، وتقليب الرأس، وحركات الساعدين، وسلسلة من الأوضاع الشهوانية والوجدانية هي التي تشكل عمق الرقص في بلاد الشرق. إن التقدم والحركة عن طريق انتقالات بالرجلين لا يُحس بها، ورفع الرجلين إلى مستوى العين مثل ما تفعل "إلسلر" و"كارلوطا كريزي"[17] معناه عندهم إخلال كبير بالحياء، بالرغم من السراويل العريضة التي هي أكثر حشمة من التُّبان. حقيقة أنه كنوع من التعويض، يبدو لنا الرقص الإفريقي متحررا جدا، وشهوانيا جدا، ولكن الأمر ليس على هذا النحو في هذه المرة، حيث يستعير الرقص لهدفه الخاص طابعا غامضا قدريا ومقدسا.

وتركت النسوة الثلاث الأخريات بدورهن مكانهن، ودخلن في الحلبة السحرية، في حين راحت النساء العجائز تضرب على الدربوكات بغضب مضاعف، وتعطي لغنائهن الرتيب تميزا مقعرا وحادا، ذا وقع غريب لم يعد يشبه الصوت الإنساني تقريبا. وبدا كأن لهذه الأصوات الحادة، والإيقاع اللاهث، تأثيرا قويا على الراقصات، فرحن يلقين بأجسادهن إلى الأمام ثم إلى الخلف بكيفية يكدن أن يلمسن معها أرض الفناء، ويُدِرن في ولهٍ المناديل المخططة بالذهب التي كن يمسكن بها في كل يد، ويلوين أجسادهن في شكل حلزوني مع ارتفاع متزايد في السرعة.

وبعد حين انفصلت أغطية الرأس عن شعورهن، ولأنه لم يعد هناك أي شيء يمسك شعرهن فقد تدلى على أكتافهن، ورقابهن وجباههن، ووجناتهن، وعلى صدورهن،

17) فاني إلسلر وكارلوطا كريزي، راقصتان مشهورتان على عهد الكاتب، الأولى نمساوية، والثانية إيطالية.

كأنه ثعابين سوداء طردت بشكل عنيف من ملجئها. كانت خصلات شعورهن الطويلة البنية المشوشة، المضطربة بفعل الحركات المنتظمة، تشبه سيور سوط تحركه روح غير مرئية، تضرب الراقصات وتحثهن، الواحدة بعد الأخرى، على تنشيط رقصتهن المحمومة.

كانت عائشة (هكذا اسمها كما أعلمني مرافقي) تتلوى مثل دودة قطعت إلى أربع، أو مثل ضفدعة على بطارية "فولطا"[18] بدت بجسمها الصغير الضعيف المنفعل كأنها قد تلقت من العزيمة السحرية تأثيرا أقوى من الأخريات، ولكن وجهها البهي حافظ دوما –وسط تلك التشنجات المصاحبة للرقص– على جماله الصافي، وبدت بين تلك "الميدوزات"[19] ذوات الشعر المبعثر كأنها تضع قناعا من الرخام الباهت البياض.

وصدرت عن الأشباح التي كانت تطل من حافة السطح زغرودة تشجيع طويلة[20]، وجمدت هذه الزغرودة المخ في العظام، والزغرودة تتم بضرب الفم براحة اليد أثناء خروج الصوت، ويمكننا القول عنها أنها تشبه عواء ذئب مجروح يشكو ألمه للّيل.

ولأن الراقصات صرن لاهثات الأنفاس، مختنقات، يحشرجن مثل أنفاس كير، فقد تخلصن أولا من ستراتهن، ثم من فُوَطهن، ولم يحتفظن إلا بسراويلهن وقمصانهن الحريرية. وضغط

18) فولطا أليكسندرو عالم فزياء إيطالي اخترع سنة 1800 بطارية الكهرباء، ويشير الكاتب هنا إلى إحدى تجاربه على بطاريته.

19) مُفرد ميدوزة، ويتعلق الأمر مرة أخرى بالأساطير اليونانية، حيث كان لإحدى الميدوزات نظرة قاتلة، وكانت تضع على رأسها "تاجا" من الثعابين، ووجه الشبه بين هذه وبين النساء الراقصات هو الشعر الذي شبهه الكاتب بالثعابين.

20) استعمل الكاتب في النص الأصلي كلمة "صيحة"، ولكن من السياق يتبين أنه يقصد "زغرودة".

الإيقاع بقسوة على سرعة الرقص لترتفع وتيرته أكثر فأكثر، في حين واصلت العجائز لحنهن الأغن الهستيري، وبعد قليل لم يعد كل هذا سوى خليط من الحركات المتشنجة، والشعور الصافرة، والسواعد المتخبطة، والصدور اللاهثة، والحلوق الهاذية، والكعوب الصغيرة التي تدق البلاط مثل حوافر الغزلان.

لقد كان شيئا رهيبا ورائعا. لقد كنت مندهشا ومنشرحا، فهؤلاء النساء الجميلات، وعبر هذا الهذيان المتهتّك، والهياج "الميناذي" القديم[21]، احتفظن بشبه لطافة مخيفة. إن هذه الطبول والأغاني والزغاريد والتشنجات والأنفاس اللاهثة، وهذا الخليط من الألوان والأشكال، جعلتني أصاب بالدوار، وبدا لي كأنني أسمع تحت سقف الأروقة اضطراب أجنحة الجن المجلّدة والمسلحة بالأظافر وهي تفر.

وسقطت راقصتان أو ثلاث دفعة واحدة على الأرض، في تصلب يشبه تصلب مرضى "التيتانوس"، فأقعدوهن، وأفرغوا إناء من الماء على رؤوسهن، فرحن يستعدن وعيهن شيئا فشيئا، ويلقين حولهن بنظرات فزعة، تعبر عن أثر الرعب الذي ركبهن من هول ما ظهر لهن. لقد نجحت العزيمة وطارت الجن، وتخلص مستضيفوهم منهم، وأصبح البيت الآن قابلا للسكن.

وأخذت ممثلات هذه الدراما العجيبة يلبسن مجددا ثيابهن، ويسوين شعورهن، ويغادرن الحلبة في مجموعات صغيرة. وانتظرت أن أرى العجائز الساحرات وهن يمتطين مكنسة

21) نسبة إلى "الميناد" وهو اسم المرأة المؤتمنة –حسب معتقدات اليونانيين القدامى– على أسرار "ديونيزوس" إله الخمر والنماء.

تعيدهن إلى ديارهن، ولكن يبدو أن التقليد ليس هكذا في إفريقيا، حيث مضين إلى ديارهن راجلات.

واتبعت رفيقي بخطوة متعثرة، وأنا ثمل من هذا العرض المدوِّخ، ولكنني نسيت وصيته بأن لا يغيب ضوء فانوسه عن ناظري، وفي منعطف مفاجئ في الزقاق غابت عن ناظري نجمتي القطبية. وقادتني خطوات قمت بها في الاتجاه غير الصحيح، بحثا عن الضوء الهادي، إلى الضياع وسط ظلمة هي الأشد كثافة، والأحلك من نوعها، التي لا تقبل الاختراق.

وبعد أن قمت بعدة محاولات ذهابا وإيابا أتلمس طريقي أحسست كأنني محارة علقت في كتلة من الرخام الأسود، في هذا العجين الكثيف من الظلام. لم يكن هناك أي ضوء في النوافذ لسبب معقول هو أن النوافذ لا تفتح في قسنطينة على الشارع.. كنت أشد ضياعا من الرسام "روبير"[22] في سراديب الموتى بروما، وينطبق على حالي، كأقوى ما يكون عليه الحال، البيت الشهير لـ"جاك دوليل"[23].

لا يرى إلا الليل، لا يسمع إلا الصمت

ورحت أتبع الجدران متلمسا إياها باليدين، ولكنني ما كنت أخرج من ظلام إلا لأسقط في ظلام. وعندما مللت من إتعاب نفسي بلا جدوى كنت على وشك أن أجلس على درج باب

22) روبير رسام فرنسي عاش ما بين 1733 و1808 واشتهر برسم المقابر الرومانية التي تتميز بكونها خنادق أو سراديب تحت الأرض.
23) الأب جاك دوليل، شاعر فرنسي عاش ما بين 1738 و1813، وهو مترجم الشاعر فرجيل من اللاتينية.

اصطدمت به رجلي، وأنتظر طلوع النهار، فإذا بي أرى ضوء فانوس ظهر فجأة في زاوية مفترق أزقة. وظننت في الأول أنه صاحبي جاء يبحث عني، غير أنه تبين لي بعد قليل خطأي عندما اقترب الضوء مني، وارتسم أمامي ظلان أنيقان هما عائشة وأختها اللتان كانتا تلُفّان جسديهما في حائكين طويلين، وكانتا في طريق العودة إلى مسكنهما.

بدا عليهما في الأول أنهما ارتعبتا، ولكنهما حينما رأياني وحيدا، وبلا فانوس، أدركا حيرتي.. لم أكن أعرف أية كلمة عربية، ولم يكونا يفقهان أية كلمة فرنسية، وهذا ما صعَّب الحديث بيننا، ولم يكن السؤال بلغة الإشارة عن طريق فندق "أوروبا" أمرا عمليا، ومع ذلك فقد حاولت، مستحضرا كل ذكرياتي عن عروض الأوبرا ومهرجي السيرك، غير أنني رأيت في عيونهما الكبيرة المندهشة أنهما لم يفهما. وتشاورتا فيما بينهما لحظة، وكانت نتيجة المداولات أن وضعت الصغيرة طرف كمها في يدي، مع إشارة كانت تريد أن تقول بوضوح في هذه المرة: "اسلم قيادك لنا".

وظننت في الأول أنهما سيقوداني إلى الفندق، ولكنهما توقفتا بعد عدة منعطفات أمام باب مغلق برتاج عربي، فكّتا سيوره بخفة، ولم يكن بالتأكيد هو باب فندق أوروبا. وتسلقتُ خلفهما سلّما صغيرا ذا أدراج عالية، ملطخة بالجير تلطيخا، وكانت زواياها كأنما قُدَّت من كتل صخر إسبانيا الأبيض. وبعد صعود قصير وجدت نفسي في غرفة نوم الفتاتين، وهي غرفة في غاية البساطة الموريسكية، تزينها زخرفة مرسومة في السقف،

وبها صندوق خشبي ملون لحفظ الملابس، وقُلة من فخَّار موضوعة في الطراوة على مسند النافذة. لقد وجدت نفسي في الأمسية ذاتها التي وصلت فيها إلى قسنطينة ((داخل العائلات)) مثل "دون سيزار دو بازان، الكونت دي غاروفا"[24].

مع فارق واحد هو أنني لم أدخل من المدخنة، علما أن دخول البيوت أمر صعب في الجزائر.

وراحت الأختان –اللتان لم يظهر عليهما أي تعب من "الكاشوشا"[25] الشيطانية التي شاركتا فيها– توجهان إلي كل أنواع الخطابات غير المفهومة، تخالطها قهقهات عالية، كنت أحاول ما استطعت أن أرد عليها كباريسي أصيل. وأثناء لحظات الصمت كانتا تمضغان كرات صغيرة من اللبان لتنظيف الأسنان وتطييب الأنفاس، وهي عناية غير ضرورية بالتأكيد، لأنه كان لكليهما أسنان صغار الكلاب بـ"الأرض الجديدة"[26] كانت أسنانهما تحدث وهي تنفصل عن العلكة اللزجة طرطقة مميزة، لم تكن تخلو من رقة ودلال.

وأخيرا قامت الأخت الكبرى من فوق الصندوق الذي كانت تجلس عليه، واتجهت إلى ما يشبه مخدعا مهيئا في الحائط، وأخرجت منه حشية قطن ضامرة طرحتها وعائشة على الأرض، وكنت أنا أنظر إلى هذه الاستعدادات في اندهاش، فسوَّت الكبرى مكانها في المخدع، وتمددت الصغرى بكل

---

24) أحد أبطال مسرحية "روي بلاس" (Ruy Blas) للشاعر فكتور هيكو التي تدور حوادثها في إسبانيا في القرن السادس عشر.

25) الكاشوشا رقصة إسبانية عنيفة من أصل أندلسي وقد أدتها الراقصة النمساوية فاني إلسلر المشار إليها سابقا في باليه "الشيطان الأعرج".

26) الأرض الجديدة تطلق على جزيرة تقع في الجزء الشرقي من كندا، كما تطلق على جزء من القطب الجنوبي للكرة الأرضية، ولا ندري أيا منها يقصد الكاتب.

هدوء، بعد أن جذبت إزارا رقيقا على حبل مشدود بالعرض في فضاء الغرفة، على الحشية بلباس الرقص الجنوني -لأن الشرقيين لا ينزعون ثيابهم عند النوم- دون أن تعيرني أي اهتمام، كأنني لم أكن موجودا، غير أنني فكرت أنه في استطاعتي، وقد تركتْ مكانا فارغا على حافة فراشها المرتجل، أن أستفيد من هذا الإذن الضمني لي بأن أتمدد على الحافة، حتى لا أزعجها، لأرتاح بعض الوقت، لأنني كنت منهكا من التعب، ولكنني لم استطع النوم. وأدركت، ببعض ما كان عندي من احترام للضيافة، أن الناسك "روبير داربريسال" قد فرض على نفسه عقابا قاسيا حين أمضى الليل يغالب نفسه، إلى جانب فتيات شابات، دون أن يخدش لهن عفة[27].

كانت عائشة ترقد في صفاء كامل، ولا شك أنها قد نسيت الجنون، لأنه لم يمر على جبهتها الهادئة أي ظل لحلم سيء، ورموشها الطويلة المسدلة، والمشرعة في شكل مروحة سوداء على خديها المورَّدين من أثر النوم مثل خدود الأطفال، لم تفتح ولو مرة واحدة.. كان قميصها الحريري الرقيق المشقوق الصدر يسمح، في ظل شفاف، بتصور نهدين وليدين موشَّمين، واحد بصليب لازوردي، والثاني بوردة حمراء أوراقها زرقاء وزهرتها حمراء.

ليالي إفريقيا ليست طويلة في شهر أوت، فقد تسرب ضوء أزرق باهت من الكوة التي كانت القُلة تبرد فيها ليحول ضوء المصباح المضطرب إلى اللون الأصفر، فقمت وألقيت نظرة عبر

27) هو ناسك فرنسي من القرن الحادي عشر، اشتهر باستقامته وعفته، ويشير الكاتب هنا إلى إحدى الحكايات المتعلقة بسيرته، وهو غير "روبير" الرسام المشار إليه من قبل.

الكوة. كانت هوة وادي الرمال -المعترضة بقوسيها العظيمين- محفورة في الضباب اللازوردي تحت سور البيت، واللقالق التي كانت تسقط الثعابين على أسطح قسنطينة القرميدية قد بدأت تطير بوقار وسط أسراب مخبولة من الزرزور الرمادي.

واستيقظت النائمتان الجميلتان، وقبل أن أغادر عشهما المضياف رسمت في دفتر سفري صورة لعائشة، حتى أرسِّخ في ذاكرتي ذكرياتي عنها. أما الأخت الأخرى، التي أردت أن أرسم لها صورة هي أيضا، فلم تشأ أن تستجيب لهذه الرغبة، يشدها عن ذلك، ولا شك، بعض تلك التحفظات الدينية الخاصة بالمسلمين، الذين يرون الأوثان في أي صورة.

وقابلت في الشارع أحد قناصة إفريقيا، الذي قادني بكل أريحية إلى فندق أوروبا، حيث كانوا قلقين علي أشد القلق..

ولم أر عائشة ولا أختها مرة أخرى - فقدر المسافر هو أن يفارق دائما ما يروق له، وأن لا يرى مرة أخرى ما أعجب به أبدا - ولكن بلغتني عنهما في العام الماضي أنباء محزنة، فقد جاء في إحدى الصحف هذه الأسطر:

((راقصة من قسنطينة تدعى "عائشة بن شباريا" قتلها قبائليون أثارت حليها طمعهم، دخلوا إلى بيتها ليلا. وقد عثر على جثتها في وادي الرمال مدرجة بدمها وجسمها كله مشوه، حيث نزع القتلة أذنيها وقطعوا أصابعها حتى لا يتعبوا أنفسهم في نزع أقراطها وخواتمها، ويجرى الآن البحث عن الجناة)).

وعليه فإن رسمي الصغير الذي رسمته لها هو كل ما بقي من هذا الكائن الجميل..

جُمـــان*

بروسبير ميريمي

Prosper Mérimée
Djoûmane

بروسبير ميريمي 1803-1870 قاص وروائي ومسرحي، ولكن شهرته جاءت بالخصوص من كتاباته القصصية التي استوحاها من رحلاته إلى إسبانيا وكورسيكا، وتميزت بتصويرها للعادات والتقاليد والألوان المحلية لتلك البلاد. من أعماله الشهيرة قصتا "كولومبا" و"كارمن". أما قصة "جمان" التي نقدمها هنا فالظاهر أنه استقاها من مذكرات بعض العسكريين الذين كانوا يعملون في الجزائر، وبالتحديد في منطقة تلمسان، لأن الكاتب لم يزر الجزائر. ويلاحظ قارئ القصة تلاعب الكاتب بوعي القارئ وخلطه الحقيقة بالحلم مما يجعل القارئ غير متأكد مما يرويه أهو حقيقة أم أضغاث أحلام، علما أن الكاتب قد عرف بهذا النوع من الحيل والألاعيب في بناء رواياته وقصصه، ولا تشكل قصة "جمان" استثناء عنده.

يوم 21 مايو كنا ندخل إلى تلمسان. كانت خرجتنا ناجحة.. كنا نسوق معنا ثيرانا وأغناما وجمالا وأسرى ورهائن، فبعد سبعة وثلاثين يوما من الضرب في البراري، أو بالأحرى من الصيد المتواصل، كانت خيولنا قد هزلت، وضمرت بطونها، ولكن عيونها كانت تشع حيوية وتيقظا، لم يسلخ جلد أي منها تحت الركاب. وكان رجالنا قد لوحتهم الشمس،

* وردت هذه القصة ضمن مجموعة : Prosper Mérimée "Colomba"

شعورهم طويلة، ومزاود عتادهم متسخة، وستراتهم ممزقة، تكشف عن عدم الاكتراث بالمخاطر، وبحياة البؤس التي تميز الجندي الحقيقي. ولهذا، ومن أجل القيام بمهمة عسكرية ناجحة، لا يمكن لأي جنرال أن لا يفضل قناصتنا على أظرف فصيل يلبس ثيابا جديدة.

منذ الصباح كنت أفكر في كل ما كان ينتظرني من أويقات سعيدة، حيث سأنام على سريري الحديدي بعد أن نمت سبعا وثلاثين ليلة على مستطيل من القماش المشمع، وسأتعشى وأنا جالس على كرسي، وسيكون هناك خبز طري وملح مناسب، ثم تساءلت ما إذا كانت الآنسة "كونشا" ستكون مزينة شعرها بزهرة جلنار أو بالياسمين، وهل ستفي بوعودها لي قبل أن أرحل، ولكن سواء أكانت وفية أم غير قارة على رأي فقد شعرت أنه في استطاعتها أن تعول على رصيد العواطف الكبير الذي حملته لها من الصحراء. لم يكن هناك أي أحد من أفراد فصيلي لم يكن لديه مشروع لتلك الأمسية.

استقبلنا العقيد استقبالا أبويا قويا، بل وأعلن لنا أنه كان راضيا عما قمنا به، ثم أخذ قائدنا على حدة، وخلال خمس دقائق كان يحدثه بصوت خفيض أحاديث غير سارة حسب ما أمكننا الحكم به عليها من تعابير وجهيهما. كنا نلاحظ حركات شاربي العقيد اللذين كانا يرتفعان إلى مستوى الحاجبين، في الوقت الذي كان فيه شاربا القائد ينحدران مشعثين بطريقة تثير الشفقة إلى مستوى الصدر. وقال أحد القناصة الذي كنت أتظاهر بعدم الاستماع إليه: إن أنف القائد كان أثناء ذلك يتمدد، ولكن، وبعد حين، كانت أنوفنا نحن أيضا تتمدد حينما جاء القائد

ليقول لنا: ((عليكم أن تقدموا العلف لخيلكم، وأن تستعدوا للمغادرة مع غروب الشمس.. سيكون عشاء الضباط عند العقيد على الساعة الخامسة، بلباس الميدان، وسنركب خيلنا بعد تناول القهوة.. هل يمكن أن يكون من بينكم، أيها السادة، من لم يعجبه الأمر؟)).

لم يعجبنا الحال.. وحييناه، ونحن نلعنه في دخيلة أنفسنا هو والعقيد.

لم يكن لدينا إلا وقت قليل للقيام باستعداداتنا الصغيرة.. سارعت إلى تغيير ملابسي، وتحاشيت الجلوس على السرير، بعد أن غسلت، خشية أن يأخذني النوم.

في الساعة الخامسة دخلت عند العقيد، وكان يسكن بيتا موريسكيا كبيرا، فوجدتُ صحنه مليئا بخليط من الناس: فرنسيين وأهالي، يتزاحمون حول عصابة من الرحالين أو البهلوانيين القادمين من الجنوب.

كان مُسيِّر العرض شيخا قبيحا مثل قرد، نصف عارٍ، تحت برنس مثقوب، جلده بلون الشوكولاطة المنقوعة في الماء، موشَّم بكل أنواع الوشم، شعره أجعد وكثيف إلى حد أن الناظر إليه من بعيد يظنه لابسا "قولباقا"[28] على رأسه. لحيته بيضاء ومدببة الشعر. قيل عنه إنه قديس كبير وساحر قدير. كانت قبالته جوقة تتكون من نايين وثلاثة طبول تثير ضجيجا جهنميا يليق بالمسرحية التي ستعرض. قيل إنه تلقى من "مرابط" ذائع الصيت قدرة السيطرة على المردة والحيوانات المتوحشة.

---

28) قلنسوة مصنوعة من الفرو كان يلبسها الجنود الأتراك، والكلمة نفسها تركية الأصل.

بعد تحية مجاملة وجهها نحو العقيد ونحو الجمهور المحترم، راح يتلو ما يشبه صلاة أو تعويذة، مدعومة بموسيقى الفرقـــة، في الوقـــت الـذي راح فيـــه الممثلـــون، بإشـارة منـه، يقفزون ويدورون على رجل واحدة، ويضربون صدورهم بقبضاتهم ضربات قوية. وأثناء ذلك كانت الطبول والنايات تزيد من سرعة الإيقاع.

وعندما أفقد التعب والدوار هؤلاء القوم القليل من العقل الذي لديهم، أخرج كبيرهم في السحر عقارب وثعابين من بعض القفاف التي كانت تحيط به. وبعد أن بيَّن بأنها حية، رمى بها إلى مهرجيه الذين انقضوا عليها مثل ما تنقض الكلاب على عظم وراحـوا يمـزقـونهـا بـأسنـانـهـم في لـذة، إذا كـان هـذا الوصف يعجبكم.

كنا نتفرج من رواق عالٍ على المشهد المميز الذي منحنا العقيد إياه، من أجل أن يجعلنا نستعد استعدادا جيدا –ولا شك– لتناول العشاء.

بالنسبة إلي –وصرفا لناظري عن هؤلاء الأوغاد الذين كانوا يقرفونني– كنت أتسلى بالنظر إلى بنت صغيرة جميلة في حدود الثالثة عشر أو الرابعة عشر من العمر، التي كانت تتسلل بين جمع المتفرجين لتقترب من العرض. كانت لها أجمل عينين، وكان شعرها يسَّاقط في ضفائر رقيقة على كتفيها، تنتهي بقطع فضية تجلجل كلما حركت رأسها حركات لطيفة. كانت تلبس بعناية أكثر من معظم بنات البلد: منديلا من الحرير المذهب، وسترة من المخمل المطرز، وسراويل قصيرة من "الساتان" الأزرق،

تسمح برؤية ساقيها العاريتين المطوقتين بخلاخل من الفضة، ولم تكن تضع على وجهها أي برقع. أتكون يهودية، أم وثنية؟ أم تنتمي إلى هذه الحثالة المتشردة التي يجهل أصلها، ولا تدفع إلى تغيير الأحكام الدينية المسبقة عنها.

في أثناء ما كنت أتابع كل حركاتها باهتمام لا أدري مصدره كانت قد وصلت إلى الصف الأول من الدائرة، حيث كان هؤلاء المسعورون يقومون بممارساتهم. وحينما كانت تحاول أن تقترب أكثر قلبت قفة طويلة بقاعدة ضيقة لم تكن قد فتحت، فصدرت صرخة مروعة من الساحر ومن الطفلة في الوقت نفسه تقريبا، وحدثت حركة كبيرة في الحلقة، رجع الكل على إثرها إلى الخلف في ذعر. لقد أفلت من القفة ثعبان كبير فداسته البنت، فالتف في لحظة حول رجلها. ورأيت بعض قطرات الدم وهي تنزلق تحت الخلخال الذي كان يزيّن كاحلها، فسقطت على ظهرها تبكي وتصر بأسنانها، وعلت رغوة بيضاء شفتيها، في الوقت الذي كانت تتمرغ فيه في التراب.

وصرخت في طبيبنا الجراح: أسرع بالله عليك، يا طبيبنا العزيز.. أنقذ هذه الطفلة.

ورد الطبيب الضابط وهو يهز كتفيه: يا لحسن نيتك.. ألا ترى أن هذا يدخل في برنامج الحفل؟ ثم إن مهنتي هي قطع سواعدكم وأرجلكم، أما مداواة الفتيات الملدوغات من الثعابين فهي مهمة زميلي هناك.

وأثناء هذا أسرع الشيخ الساحر فأمسك أولا بالثعبان، ثم راح في لهجة عتاب ينادي البنت: جمان.. جمان..

وعاد الثعبان فبسط جسمه، وتخلى عن فريسته، وراح يزحف، فأمسك به الساحر من ذيله، ورفعه في طرف ساعده، وراح يطوف به حول الحلقة، ويعرضه على المشاهدين، والثعبان يتلوى، ويصدر صفيرا، دون أن يكون قادرا على النهوض، إذ لا يخفى عليكم أن الثعبان الذي يمسك بذيله، لا يستطيع أن يتحكم في جسمه، ولا يستطيع أن يرفع إلا ربع طوله على الأكثر، وبالنتيجة، لا يستطيع أن يعض اليد التي تمسك به. وفي ظرف دقيقة، أعيد الثعبان إلى سلته، وأحكم غلق غطائها، وراح الساحر يعتني بالبنت الصغيرة التي كانت ما تزال تصرخ وتضرب برجلها، فوضع لها على الجرح مقدار مسكة إصبعين من مسحوق أبيض، أخرجه من حزامه، ثم تمتم في أذن الطفلة بتعويذة لم يطل انتظار مفعولها، فتوقفت التشنجات، ومسحت البنت فمها، والتقطت منديلها الحريري، وأخذت تنفض عنه الغبار، وأعادت وضعه على رأسها، ثم قامت، ثم شوهدت بعدها وهي تخرج من الحلبة، وبعد لحظات صعدت إلى رواقنا لتجمع النقود، فكنا نلصق على جبينها وعلى كتفيها قطعا ثمينة من فئة الخمسين سنتيما. وكان ذلك نهاية العرض حيث توجهنا بعده لتناول العشاء.

كانت لدي شهية جيدة، وكنت أعد نفسي للاستمتاع بسمك العنقليس بالمرق الحار، عندما قال لي طبيبنا، الذي كنت أجلس بالقرب منه، إنه ليس إلا ذلك الثعبان الذي كنا نتفرج عليه منذ قليل، فكان من المستحيل علي أن آكل منه ولو لقمة.

وبعد أن سخر الطبيب من أحكامي المسبقة، طلب نصيبي من العنقليس، وأكد لي أن للحم الثعبان طعما لذيذا، وقال لي: إن هؤلاء الأوغاد الذين كنت تشاهدهم، هم أصحاب معرفة، إنهم يعيشون داخل كهوف مثل طيور الكهوف، مع ثعابينهم، ولهم فتيات جميلات، تشهد على جمالهن تلك البنت ذات السراويل الزرقاء. إنه لا يعرف عنهم بأي دين يدينون، ولكنهم أصحاب دهاء كبير، وأريد أن أتعرف على شيخهم.

أثناء ما كنا نتعشى عرفنا السبب الذي من أجله سنعود إلى البراري، فقد علمنا أن "سيدي لعلا"، الذي طارده العقيد "ر..." مطاردة شديدة، كان يريد أن يلتحق بجبال مراكش، وليس له من خيار إلا أحد طريقين: طريق بجنوب تلمسان يمر بمجاز نهر ملوية، حيث نقطة العبور الوحيدة من بين المنحدرات الجبلية التي لا يمكن المرور عبرها، والطريق الآخر عبر السهل الواقع شمال معسكرنا، وفي هذا الطريق سيجد عقيدنا ومعه القسم الأكبر من جيشنا، وكانت مهمة فصيلنا هو منعه من عبور النهر فيما لو حاول ذلك، حتى وإن كان أمرا بعيد الاحتمال.

تعلمون أن نهر ملوية يجري بين سورين من الصخور، ولا يوجد به إلا شبه منفذ ضيق تستطيع الخيول المرور به. كنت أعرف المكان جيدا، ولا أفهم لماذا لم يُقَم به إلى حد الآن دشم[29]

29) الدشم في القاموس العسكري هو الساتر الترابي أو الخندق المغطى بالإسمنت المسلح لحماية من فيه من نيران العدو.

وبقدر ما كان العقيد يعتقد أن هناك احتمالا كبيرا في مقابلة العدو في هذا المكان، كنا نعتقد أننا نقوم بسباق معه لا جدوى منه.

قبل انتهاء العشاء كان العديد من فرسان "المخزن"[30] قد جاؤوا برسائل مستعجلة من العقيد "ر...". كان العدو قد تمركز، وأبدى ما يشبه الاستعداد للقتال. لقد أضاع الوقت، حيث كانت قوات العقيد "ر..." على وشك الوصول إليه، وتبديد شمله. ولكن من أين يمكن أن يفلت؟ لم يكن لنا أي علم بذلك، فكان علينا أن نتوقع مروره من الطريقين، ولا أتحدث عن احتمال أخير يمكن أن يلجأ إليه، وهو أن يلقي بنفسه في الصحراء، حيث سيفضي به الأمر سريعا إلى هلاك ماشيته و"زمالته"[31] جوعا وعطشا. وكانت هناك علامات متفق عليها للإخبار عن تحرك العدو، وهي ثلاث طلقات مدفع تطلق من تلمسان لإخبارنا بوجود سيدي لعلا في السهول، وكنا نحن نحمل معنا بنادق لنعلن بها حاجتنا إلى المساندة. وحسب كل الاحتمالات لم يكن متوقعا للعدو الظهور قبل طلوع النهار، وكانت فرقتانا تتقدمان عليه بعدة ساعات.

عندما ركبنا خيلنا كان الليل قد نزل، وكنت أقود فصيلة الطليعة. كنت أشعر بالتعب والبرد، فلبست معطفي، ورفعت ياقته، ووضعت رجلي في الركاب، ورحت أتقدم بهدوء بقدر خطوات فرسي الواسعة، مصغيا إلى "فاكنر" رتيب الخيول[32]

---

30) يخلط الكاتب هنا في استعمال لفظ "المخزن" الذي يطلق على أعوان السلطان في المغرب الأقصى، ليصف به أعوان الإدارة الاستعمارية من الجزائريين.

31) الزمالة هي القافلة التي تضم نساء المقاتلين وأطفالهم، وقد أوردها الكاتب باسمها العربي مع قلب الزاي سينا : La Smala

32) صف ضابط مكلف برعاية الخيل.

الذي كان يروي لي إحدى حكاياته الغرامية، التي انتهت نهاية مأساوية، بهروب عشيقته غير الوفية، التي أخذت منه، مع قلبه، ساعة فضية، وحذاء طويل العنق جديد. وكنت أعرف حكايته هذه، وقد بدت لي في هذه المرة أطول من المعتاد.

كان القمر يعلو في السماء أثناء ما كنا نتقدم في الطريق. وكانت السماء صافية، ولكن كان هناك ضباب خفيف أبيض يصعد من الأرض، فيغطيها، ويجعلها كأنها مغطاة بتيجان القطن، وعلى هذا السطح الأبيض كان القمر يلقي بظلال طويلة، فتتخذ الأشياء مظهرا عجيبا، فكنت أتوهم أحيانا أنني أرى طلائع من الفرسان العرب، وحين أقترب أجدها أشجار أثل مزهرة، وأحيانا كنت أقف وقد خيِّل إلي أنني أسمع علامة إطلاق قذائف المدفع، فيقول لي "فاكنر" إنها وقع حوافر حصان يعدو.

ووصلنا إلى مجاز النهر، فأصدر لنا الرائد أوامره. وكان الموقع رائعا للدفاع، بحيث كانت سريتنا وحدها كافية لإيقاف جيش معتبر. وكان هناك سكون تام في الجهة الأخرى من النهر.

وبعد انتظار طويل سمعنا حوافر حصان يعدو، وبعدها ظهر عربي يمتطي حصانا رائعا، ويتقدم نحونا. ومن مظلة القش التي كان يضعها على رأسه، ويعلوها ريش النعام، ومن سرجه المطرز، الذي كانت تتدلى منه "جبيرة"[33] مزينة بالمرجان والزهور المذهَّبة، أدركنا أنه قائد. وقال لنا دليلنا إنه سيدي لعلا شخصيا. وكان شابا جميلا، ممشوق القوام، يتحكم في حصانه بطريقة

33) المقصود بالجبيرة هنا: المزود الذي يضع فيه الفارس زاده من الأكل وحاجياته الضرورية.

ممتازة. كان ينطلق بحصانه، ثم يرمي ببندقيته الطويلة في الهواء، ليعود فيلتقطها وهو يرفع صوته بما لا أدري من عبارات التحدّي.

إن أزمنة الفروسية قد ولت، ولذلك طلب "فاكنر" بندقية ليسكت بها المرابط، ولكنني اعترضت عليه. وحتى لا يقول إن الفرنسيين قد رفضوا القتال في حقل مغلق مع عربي، فقد طلبت من القائد أن يأذن لي بعبور المجاز لمبارزة سيدي لعلا، فأذن لي، وسرعان ما عبرت النهر، في حين راح قائد العدو يبتعد بهرولة خفيفة ليعود إلى منطلقه. وبمجرد أن رآني على الضفة الأخرى انطلق نحوي والبندقية على كتفه. وصرخ في فاكنر: خذ حذرك.

لم أعد أخشى طلقات بندقية الفرسان، ثم إنه، حسب استعراضات الفروسية التي قام بها سيدي لعلا، فإن بندقيته لم تكن جاهزة لإطلاق النار.[34] وبالفعل، فقد ضغط على الزناد على بعد ثلاث خطوات مني ولكن البندقية لم تستجب كما كنت أنتظر. وبسرعة أدار الرجل حصانه رأسا على عقب، بحيث أنني عوض أن أغرس سيفي في صدره لم ألحق إلا بطرف برنسه الخفاق، غير أنني رحت ألاحقه من قريب، وأحشره بقدر ما استطعت إلى يميني، نحو المنحدرات التي تحيط بالنهر، وعبثا حاول أن يفلت مني، حيث كنت أضيّق عليه الخناق أكثر فأكثر.

وبعد دقائق من سباق مسعور رأيت حصانه يقف فجأة على قائمتيه الأخيرتين، وهو يشد على عنانه بكلتي يديه،

34) يفهم من هذا الكلام أن سيدي لعلا كان قد أفرغ بندقيته أثناء الاستعراض الذي قدمه.

ودون أن أسأل نفسي لماذا قام بتلك الحركة المميزة، هجمت عليه مثل قذيفة، فغرزت سيفي في صميم ظهره، في الوقت الذي ضرب حافرا فرسي فخذه الأيسر، فهوى الرجل والحصان، وسقطت أنا وفرسي خلفهما.

كنا قد بلغنا حافة هوة، دون أن نلحظ ذلك، وسقطنا فيها، وأثناء ما كنت أحلق في الهواء قلت في لحظة تفكير سريعة في نفسي: إن جسد العربي سوف يخفف سقوطي، ورأيت تحتي بوضوح برنسا أبيض، ملطخا بلطخة حمراء كبيرة، وهناك سقطت كيفما اتفق. ولم يكن السقوط بالشدة التي توقعتها، بفضل ارتفاع الماء. كانت السقطة على الأذنين، فرحت أتخبّط بعض الوقت في ذهول، ولا أدري كيف وجدت نفسي واقفا وسط القصب الطويل على حافة النهر، أما ماذا جرى لسيدي لعلا وللحصانين فلا أدري عنه شيئا. كنت مبتلا، أرتعد من البرد وسط الطمي، بين جدارين من الصخر. وخطوت بعض الخطوات آملا في العثور على موضع يكون أقل انحدارا، ولكنني كلما تقدمت تبين لي أنه أكثر انحدارا، ولا يمكنني اجتيازه. وسمعت فجأة فوق رأسي وقع حوافر خيل، وقرقعة أغمدة السيوف وهي ترتطم بالركابات والمهامز، وكان واضحا أنهم فرسان فصيلنا، فأردت أن أصرخ ولكن لا صوت كان يخرج من حلقي، لا شك أن صدري قد تحطم أثناء سقوطي.

لكم أن تتصوروا حالتي. كنت أسمع أصوات رفاقي وأميزها، ولكنني كنت غير قادر على مناداتهم لمساعدتي. وسمعت "فاكنر" يقول: "لو تركني أفعل لعاش لكي يكون عقيدا"..

وبعدها بقليل راح الضجيج يتضاءل ويضعف إلى أن صرت لا أسمع شيئا.

فوق رأسي كان هناك جذر كبير معلق، وكان لدي أمل أن أمسك به لأصعد إلى حافة النهر، وبجهد يائس تعلقت به، فراح الغصن ينحني ليفلت من بين يدي وهو يصدر صفيرا مريعا: سسس.. لم يكن ذلك إلا ثعبانا ضخما.

ووقعت من جديد في الماء، وانزلق الثعبان من بين رجلي، ليلقي بنفسه في النهر، حيث بدا لي كأنه قد ترك من خلفه لسانا من نار. وبعد دقيقة من ذلك عاد إلي هدوئي، ولكن ذلك الضوء الذي كان يضطرب على صفحة الماء لم يختف، بدا لي كأنني أرى عليه انعكاس ضوء مِشعلٍ. وتبيَّن لي أن هناك، على بعد عشرين خطوة مني، امرأة تملأ جرة من النهر بيد، وتمسك باليد الأخرى قطعة حطب مُرنتج[35] يلتهب. لم تشعر المرأة بوجودي، ووضعت جرتها بكل هدوء على رأسها، وغابت بين القصب وفي يدها المشعل، فتبعتها، حيث وجدت نفسي في مدخل كهف.

كانت المرأة تتقدم باطمئنان تام، ثم صعدت منحدرا شديد الانحدار بعض الشيء، أشبه ما يكون بدرج منحوت في مواجهة قاعة فسيحة، وعلى ضوء المشعل تبينت لي أرضية هذه القاعة التي لم تكن أعلى من مستوى النهر، إلا أنني لم أستطع أن أكتشف مدى امتدادها. ودون أن أفكر كثيرا فيما أقدمت عليه، اندفعت صاعدا وراء المرأة التي كنت أتبعها، تاركا مسافة بيني

35) به زيت الراتنج الذي يساعد على الاشتعال.

وبينها، وكان ضوء مشعلها يختفي بين الحين والحين وراء تجاويف بعض الصخور، ليعود سريعا فيظهر لي من جديد.

وخيِّل لي أني أرى أيضا فتحة مظلمة لرواق كبير متصل بالقاعة الرئيسية.. يمكن لمن يشاهد ذلك أن يقول إنها مدينة تحت الأرض، بشوارعها ومفترقات طرقها. وتوقفت، بعد أن فكرت أنه من الخطر أن أغامر بمفردي في هذه المتاهة الشاسعة. وفجأة أضيء أحد الأروقة التي كانت تحتي بضوء ساطع، ورأيت عددا كبيرا من المشاعل التي بدت لي أنها تخرج من جنبات الصخر، لتشكل ما يشبه موكبا عظيما، وليرتفع في الوقت نفسه غناء رتيب يذكِّر بما يرتله العرب أثناء صلواتهم. وبعدها بقليل ظهر لي جمع عظيم يتقدم ببطء، وفي مقدمة الجمع يسير رجل أسود، عارٍ تقريبا، تغطي رأسه كتلة ضخمة من الشعر المنفوش، وتعارض لحيته البيضاء المسترسلة على صدره لون صدره البني المحزَّز بالوشم الأزرق الباهت. وسرعان ما تبيَّن لي أنه هو ساحر الأمس نفسه، وظهرت لي، بعد هنيهة، إلى جانبه الطفلة الصغيرة التي لعبت دور "أوريديس"[36] بعينيها الجميلتين، وسراويلها الحريرية، ومنديلها المطرز على الرأس.

وكان هناك نساء وأطفال ورجال من كل الأعمار يتبعانهما، وكلهم يحملون مشاعل، وكلهم يلبسون ملابس غريبة ذات ألوان فاقعة، هي عبارة عن عباءات تتجرجر أذيالها على الأرض، وطراطير عالية، بعضها من المعدن الذي كان يعكس من كل الجهات ضوء المشاعل.

36) هي زوجة أورفيوس إله الموسيقى (في الميثولوجيا اليونانية) التي لدغها ثعبان فأزهق روحها، فنزل اورفيوس إلى العالم الآخر ليعيدها إلى الحياة، وقد تمكن من استمالة حراس الجحيم الذين سمحوا له بالعودة بها بشرط أن لا يلتفت إليها حتى يخرج من باب الجحيم، ولكنه أخل بهذا الشرط ففقد أوريديس إلى الأبد.

وتوقف الساحر العجوز تحتي تماما، ومعه الموكب كله. وران صمت كبير، وكنت على بعد عشرين قدما في الأعلى منه، أحتمي بأحجار ضخمة، بحيث كنت أرى من خلفها كل شيء، دون أن يراني أحد.

ورأيت عند قدمي العجوز كتلة صخرية مستديرة الشكل تقريبا، في وسطها حلقة حديدية. وتلفظ العجوز بكلمات لم أتعرف عليها، هي على الأرجح ليست عربية ولا قبائلية. وسقط عند قدميه حبل معلق ببكرة، تدلى مما لست أدري، فأدخله بعض مساعديه في الحلقة، وبإشارة منه راح حوالي عشرين ساعدا مفتولا يسحب الحبل في وقت واحد، فإذا بالصخرة التي كانت تبدو ثقيلة جدا ترتفع لتوضع على حدة، وحينئذ لمحت ما يشبه فتحة بئر كان الماء فيها على عمق أقل من متر.. هل قلت ماء؟ الأصح أنني لا أدري أي سائل بشع هو، كانت تغطيه قشرة مشكلة الألوان، تكوِّن طبقة متصلة ببعضها بعضا، مهشمة في بعض الأماكن، بحيث تسمح برؤية طمي أسود قبيح المنظر.

وقف الساحر بالقرب من حافة البئر، وقد وضع يده اليسرى على رأس الطفلة، وباليمنى كان يقوم بإشارات غريبة، في الوقت الذي كان يتلفظ فيه بما يشبه الدعاء، وسط خشوع شامل. وبين الحين والآخر كان يرفع الصوت كأنما كان ينادي أحدهم:

– "جمان، جمان"..

ولكن لا أحد قد أتى، وأثناء هذا الوقت كان يدير عينيه ويصر بأسنانه، ويصدر صرخات مبحوحة تبدو كأنها لا تصدر

من صدر إنسان. أقرفني تصنُّع هذا العجوز المحتال وملأني غيظا، حتى هممت أن ألقي على رأسه حجرا من تلك التي كانت في متناولي. وللمرة الثلاثين، ربما، زعق باسم "جمان" هذا، وحينها رأيت تلك الطبقة القشرية للبئر تضطرب، فتراجع الجمع إلى الوراء عند ظهور هذه العلامة، ولم يبق إلا العجوز والطفلة عند حافة الحفرة.

وفجأة ارتفعت من البئر فقاعة طينية مائلة إلى الزرقة، ومن الفقاعة الطينية برز رأس ثعبان ضخم ذو لون رمادي داكن، وعينين فسفوريتين.. وارتجف جسمي كله، وتراجعت لا إراديا إلى الخلف، وتناهت إلى سمعي صرخة صغيرة، وسقوط جسم ثقيل في الماء.. وعندما أرجعت بصري إلى تحت فيما يقارب ربما عشر الثانية، رأيت الساحر بمفرده على حافة البئر، الذي كان ماؤه ما يزال يصدر فقاعات، وفي وسط أجزاء الطبقة القشرية كان المنديل الذي يغطي شعر الطفلة يطفو على السطح. وفي هذه الأثناء كانت الصخرة تتحرك لتغلق الفتحة الرهيبة للهوة، وحينها أطفئت كل المشاعل في آن واحد، وبقيت أنا في الظلام وسط صمت تام، إلى درجة أنني كنت أسمع بوضوح دقات قلبي.. وبمجرد ما استعدت هدوئي بعض الشيء من هذا المشهد الرهيب، رغبت في الخروج من الكهف، وأنا أقسم أنني إذا تمكنت من اللحاق برفقائي، فإنني سأعود لأقضي على قاطني هذه الأمكنة البغيضة، سواء البشر أو الثعابين.

كان علي أن أعثر على طريق العودة. وقطعت في ما اعتقدت أنه الاتجاه الصحيح حوالي مئة خطوة داخل الكهف، حيث كان السور الصخري على يميني، ثم قفلت راجعا، ولكنني لم ألمح

أي ضوء يشير إلى مخرج النفق، لكن النفق لم يكن يمتد في خط مستقيم، مع أنني كنت أصعد دوما من حافة النهر. ورحت أتحسس الصخر بيدي اليسرى، وأحمل سيفي باليمنى، وأسبر به الأرضية، وأتقدم ببطء وحذر.. ومشيت حوالي ربع ساعة أو عشرين دقيقة، أو ربما نصف ساعة، دون أن أعثر على المدخل.. وساورني القلق، ألا أكون قد سلكت دون أن أنتبه رواقا عرضيا عوض الرجوع على الطريق الذي سلكته في الأول؟ ورحت أتقدم دائما، وأتلمس الصخر، إلى أن أحسست، عوضا عن برودة الحجر، بستار طاوع يدي، فتسلل من ورائه شعاع ضوء. وضاعفت من حذري وأزحت الستار دون ضجيج، لأجد نفسي في رواق صغير يؤدي إلى غرفة شديدة الإضاءة كان بابها مفتوحا، ثم رأيت أن هذه الغرفة كانت مكسوة بقماش مطرز بأوراق من الحرير والذهب. ورأيت بساطا تركيا، وطرفا من أريكة مكسوة بالمخمل، وكان على البساط نرجيلة فضية ومباخر، وباختصار كانت بيتا مؤثثا تأثيثا فاخرا حسب الذوق العربي.

وتقدمت على طرفي القدمين حتى الباب، فإذا بسيدة في مقتبل العمر تقرفص على تلك الأريكة، حيث كان بالقرب منها منضدة منخفضة من الخشب المزخرف، مثقلة بصينية فضية مليئة بالفناجين والقوارير وباقات الزهور.

إن الدخول إلى مخدع تحت الأرض مثل هذا يجعلنا نحس بالسكر بما لا أدري من العطر اللذيذ، فكل شيء فيه يتنفس اللذة. كنت أرى حيث ما نظرت بريق الذهب، والقماش

الثمين، والزهور النادرة والألوان المختلفة. في الأول لم ترني السيدة، إذ أنها كانت تخفض رأسها وتمرر بين أصابعها حبات سبحة طويلة من المرمر الأصفر، وكانت آية في الجمال. كانت قسماتها شبيهة بقسمات تلك الطفلة البائسة التي كنت قد رأيتها، ولكن كانت هذه أكثر نضجا، وأكثر انسجاما، وأكثر جاذبية. أما شعرها الأسود الذي كان يشبه جناح غراب، وسطويلا مثل معطف ملكس، فكان يتهدل على كتفيها، وعلى الأريكة، ليبلغ البساط عند قدميها، وكان قميصها الحريري الشفاف ذو الخطوط العريضة يكشف عن ساعدين ورقبة بديعة، وكانت سترة من المخمل المنقَّط بالذهب تلمُّ جسدها، ومن سراويلها القصيرة من الكتان الأزرق كانت تخرج قدم صغيرة رائعــة، يتدلى منها "ببوش" مذهب كانت ترقصه بحركة نزوية مليئة بالرقة.

وقرقع حذائي فرفعت رأسها ونظرت إلي، ودون أن تغير من جلستها، أو تظهر أدنى مفاجأة من رؤية رجل غريب يدخل بيتها وبيده سيف، ضربت بكفيها ابتهاجا، وأشارت لي أن أقترب، فحييتها برفع اليد إلى القلب والرأس، مقلدا بذلك التحية الإسلامية، فابتسمت لي، وبيديها الاثنتين أزاحت شعرها الذي كان يغطي الأريكة، كدعوة لي لأتخذ لي مكانا بجانبها. وخيِّل إلي أن كل عطور الجزيرة العربية كانت تفوح من شعرها الجميل.

وفي هيئة متواضعة جلست في طرف الأريكة، ممنيا النفس أن أقترب منها بعد حين، فتناولت فنجانا من الصينية كانت تمسك به من صحفته المزخرفة، وصبت لي قهوة، وبعد أن لمستها بشفتيها قدمتها لي وهي تقول:

- آه.. يا الرومي، يا الرومي[37].
- ألا نشرب الصبوح يا حضرة الملازم؟..

وعلى سماع هذه الكلمات فتحت عيني على اتساعهما، لقد كان لهذه المرأة الفتية شاربان ضخمان، ولم تكن في الواقع إلا ملامح الرتيب "فاكنر" الذي كان يقف أمامي ويقدم لي فعلا فنجان قهوة، في الوقت الذي كنت فيه نائما على رقبة حصاني، وأنظر إليه مشدوها.

- على ما يبدو، يا حضرة الملازم، أننا قد أحسنا التفكير، وها قد وصلنا المجاز، والقهوة جاهزة تغلي.

37) الكلمة وردت بالعربية في الأصل، و"لرومي" كلمة عامية جزائرية تطلق على الأوربي بصفة عامة.

في مليانة

ألفونس دودي

Alphonse Daudet

A Milianah

ألفونس دودي 1840 - 1897 كاتب روائي ومسرحي ساخر، زار الجزائر في أواخر سنة 1861 للاستشفاء من داء السل، عملا بنصيحة طبيبه، فقضى ثلاثة أشهر زار فيها منطقة الجزائر والبليدة، وأقام مدة في مليانة، وزار المناطق المجاورة لها، وكتب من وحيها عدة أقاصيص ومذكرات سفر، نشرت في الصحافة، ثم ظهر بعضها في مجموعة "رسائل طاحونتي" (1873) وبعضها في "حكايات الاثنين" (1873)، كما استوحى من هذه الرحلة رواية كاملة بعنوان "تارتاران دو تاراسكون" نشرها سنة 1872. وقد اخترنا له هنا ثلاث قصص، أو على الأصح: ثلاث مذكرات سفر هي: "في مليانة" يليها " الجراد" و"وسام الآغا".

في المرة سآخذكم لقضاء نهار في مدينة صغيرة جميلة من مدن الجزائر، على بعد مائتين أو ثلاث مئة فرسخ من الطاحونة[38]. إن هذا سيجعلنا نغير بعض الشيء نغمة الطبول والصراصير..

كان المطر ينذر بالسقوط، والسماء رمادية، ومرتفعات جبل زكار تتدثر بالغيوم. كان يوم أحد حزين. في غرفتي الصغيرة بالفندق، وعبر النافذة المفتوحة على الأسوار العربية،

38) هنا إشارة إلى "طاحونة" اشتراها الكاتب في منطقة غابية معزولة من الجنوب الفرنسي، واتخذ منها مكانا للتفكير والكتابة، وأطلق اسمها على كتاباته التي ضمنها كتابه "رسائل طاحونتي" ومن ضمنها "مذكرة السفر" هذه التي كتبها من وحي زيارته لمدينة مليانة.

كنت أحاول أن أشغل نفسي بإشعال السكائر، وكانت مكتبة الفندق كلها قد وضعت تحت تصرفي، واكتشفت، بين قصة مسهبة التفاصيل من القصص التسجيلية، وبين بعض روايات "بول دو كوك"، مؤلفا منقوص الصفحات لـ"مونتيني"(39) وفتحت الكتاب بالمصادفة لأقرأ من جديد رسالته الرائعة عن وفاة "بوئيتي"(40) وها أنني أصير أكثر شرودا وأكثر وجوما، وها هي بعض قطرات المطر قد بدأت تتساقط بعد، وكانت كل قطرة وهي تسقط على حافة النافذة، ترسم نجمة عريضة على الغبار المتراكم هناك منذ سقوط أمطار العام الماضي. وانزلق الكتاب من بين يدي، وقضيت لحظات طويلة أتأمل تلك النجمة القلقة.

ودقت الثانية في ساعة البلدية – البلدية التي هي أصلا عبارة عن ضريح أحد الأولياء الذي أشاهد من موقعي هنا جدرانه الواهية البيضاء.. يا لشقاء الولي التعس. من كان في استطاعته أن يتكهن له قبل ثلاثين عاما أنه سيحمل ذات يوم في صدره إطار اسم البلدية الضخم، وأنه سيعطي كل يوم أحدٍ لكنائس مليانة إشارة دق النواقيس؟ دينق، دانق. هاهي النواقيس تنطلق، وسيطول علينا دقها. بالتأكيد أن هذه الغرفة حزينة، فقد نسجت عناكب الصباح الثخينة –التي تدعى الأفكار الفلسفية– بيوتا لها في جميع الأركان، وعليه، فلنخرج.

وبلغتُ الساحة الكبيرة حيث كانت فرقة "الصف الثالث" الموسيقية التي يبدو أن سقوط قليل من المطر لم يؤثر عليها –تنتظم

39) مونتيني ميشال يواكيم (1533 – 1592) كاتب وفيلسوف فرنسي، اشتهر بتأملاته التي دونها في مؤلف معروف له تحت عنوان "مقالات".

40) بوئتي إتيان (1530 – 1563)، كاتب وشاعر، وكان صديقا حميما لمونتيني.

حول قائدها. ومن إحدى نوافذ مقر القيادة كان "الجنرال" يبدو محاطا بـ"أوانسه"، في الوقت الذي كان فيه نائب "عامل العمالة"(41) يجوب الساحة متجولا فيها طولا وعرضا، ممسكا بذراع قاضي الصلح. وفي إحدى الزوايا كان هناك نصف دزينة من صغار العرب، نصف عراة، يلعبون بالكويرات، ويصيحون صياحا شرسا. وهناك عجوز يهودي يرتدي ثيابا رثة، جاء يبحث عن شعاع شمس كان قد تركه بالأمس في ذاك المكان، وهو مندهش لأنه لم يعثر عليه.

"واحد، اثنان، ثلاثة، انطلق". وتنطلق الموسيقى عازفة "مازورقا"(42) قديمة لـ"طاليكسي"، كانت الأرغونات الباربيرية(43) تعزفها في الشتاء الماضي تحت نافذتي. وكانت هذه المازورقا تضجرني آنذاك، أما اليوم فإنها تشجيني إلى حد البكاء.

إيه، كم هم سعداء موسيقيو جنود الصف الثالث، عيونهم مركزة على "النُّوتة"، يترنحون مع اللحن ومع ضجيج الموسيقى، لا يفكرون في أي شيء إلا في عدِّ أوزان موسيقاهم، وأرواحهم، كل أرواحهم، معلقة في ذاك المربع الورقي، الواسع بحجم الكف، الذي كان يهتز في طرف الآلة الموسيقية، بين سِنَّين نحاسيين. "واحد، اثنان، ثلاثة، انطلق". كل شيء هاهنا بالنسبة لهؤلاء الشجعان. إن الألحان الوطنية التي يعزفونها لم تكن لتثير لديهم أبدا الحنين إلى الوطن، لكن هذه الموسيقى، ويا للأسف،

41) يقابل حاليا "رئيس الدائرة".
42) نوع من الموسيقى والرقص البولوني الأصل.
43) هي عبارة عن آلة موسيقية شبيهة بالبيانو، متعددة الأحجام، تعمل ميكانيكيا بإدخال كارتونات مثقبة تحتوي على تسجيلات موسيقية، واسمها مشتق من اسم صانعها "باربيري".

كانت تعذبني، أنا الذي لا أنتمي إلى الموسيقى، فرُحتُ أبتعد عن المكان. ترى.. أين يمكنني أن أمضي فترة ما بعد الظهيرة الرمادية ليوم الأحد هـذه؟ حسـن.. إن دكـان سِيدْ عْمَـر مفتـوح.. لندخل عند سيد عمر.

إنه حتى وإن كان لسيد عمر دكان فإن سيد عمر ليس تاجرا على الإطلاق، فهو أمير تجري في عروقه دماء الأمراء، إنه ابن أحد دايات الجزائر القدماء، الذي قضى مخنوقا بيد الجنود الإنكشارية. عند وفاة والده لجأ سيد عمر إلى مليانة، صحبة والدته التي كان يحبها حبا شديدا، حيث عاش بعض السنوات مثل سيد عظيم فيلسوف، بين كلاب صيده وصقوره وخيله ونسائه، في قصور جميلة ظليلة، مليئة بأشجار البرتقال، وبعيون الماء. وعند مجيء الفرنسيين، وبعد أن كان سيد عمر عدوا لنا وحليفا لعبد القادر[44] انتهى إلى الاختلاف مع الأمير، وأعلن خضوعه للسلطة الفرنسية. ولكي ينتقم الأمير منه دخل إلى مليانة في غياب سيد عمر، ونهب قصوره وقطع أشجار برتقاله، وأخذ خيوله ونساءه، وسحق رقبة أمه تحت غطاء صندوق كبير[45] وكان غضب سيد عمر رهيبا، فوضع نفسه في تلك الساعة ذاتها في خدمة فرنسا، فلم يكن لدينا جندي أفضل ولا أشرس منه طوال حربنا مع الأمير. وعندما انتهت الحرب عاد سيد عمر إلى مليانة، لكنه، وإلى اليوم، كان لونه يصفرُّ، وعيناه تتقدان غضبا كلما دار الحديث أمامه عن عبد القادر.

---

44) يقصد الأمير عبد القادر.

45) هذه رواية عدوه سيد اعمر، ولا ننتظر منه أن يذكره بخير .. ولا نعتقد من جهتنا أن الأمير عبد القادر، بما عرف به من نبل الأخلاق، وتمسكه بالقيم الروحية العالية للإسلام، يمكن أن يرتكب مثل هذه الفظاعة ضد النساء، أو يقطع الأشجار.

كان سيد عمر في الستين من عمره، ورغم السن، وأثر الجذري الخفيف على محياه، فقد ظل جميلا، له أهداب طويلة، ونظرة امرأة، وابتسامة لطيفة، وهيئة أمير دمرته الحرب. لم يبق له من رخائه السابق إلا ضيعة في سهل الشلف، ودارٌ في مليانة حيث يحي حياة بورجوازية مع أبنائه الثلاثة الذين نشأوا تحت ناظريه. ويحظى لدى رؤساء الأهالي بتقدير كبير، ولذلك اتخذوه حكما بينهم، وعن طيب خاطر، كلما نشب بينهم خلاف، وحكمه يكون في معظم الأحيان بمثابة قانون.

كان لا يخرج إلا قليلا، ويجده قاصدوه ظهيرة كل يوم في دكان ملاصق لبيته يفتح على الشارع. لم يكن أثاث ذلك المحل يدل على الثراء، كانت جدرانه بيضاء مطلية بالجير، ويحتوي على مقعد خشبي دائري الشكل، ومساند، وغلايين طويلة، ومجمرتين. في هذا المكان كان سيد عمر يعقد جلساته، ويرد الحقوق إلى أصحابها. كان شبيه سليمان في دكان[46].

اليوم هو يوم أحد، ولذلك فالحضور كثير. كانوا زهاء اثني عشر من رؤساء العشائر يقرفصون في برانسهم حول صحن القاعة، وإلى جانب كل واحد منهم غليون كبير، وفنجان صغير من القهوة، في صحفة رقيقة من الألياف المعدنية. ودخلت، فلم يتحرك أحد.. ومن مكانه أرسل سيد عمر نحوي أروع ابتسامة، ودعاني بإشارة من يده إلى الجلوس بالقرب منه، على وسادة كبيرة صفراء من الحرير، ثم أشار إلي بالإصغاء، واضعا سبابته على شفتيه.

46) يقصد النبي سليمان.

كانت تفاصيل القضية كما يلي: كان "قايد" بني زقزوق[47] على خلاف مع أحد يهود مليانة حول قطعة أرض، فرأى الطرفان أن يعرضا موضوع الخلاف على سيد عمر، وكان الموعد قد حدد لهذا اليوم بالذات. واستدعي الشهود، إلا أن اليهودي غيَّر رأيه فجأة، وجاء بمفرده دون شهود، ليعلن بأنه يفضل عرض القضية على قاضي الصلح الفرنسي عوضا عن سيد عمر. إلى هنا انتهت القضية عند وصولي.

رفع اليهودي أنفه إلى السماء —وكان عجوزا ذا لحية بلون التراب، يلبس سترة بنية، وسروالا أزرق، وقبعة مخملية— ولوى عينين مستعطفتين، وقبَّل حذاء سيد عمر، ثم دفع برأسه إلى الأمام، واقعا على ركبتيه، وضم إليهما يديه. لم أكن أفهم العربية ولكن مع التمثيل الإيمائي لليهودي، ومع اللازمة التي راح يكررها في كل لحظة "زوج دو بي"، "وج دو بي"[48] استطعت أن أخمِّن هذا الخطاب الشيق كله على هذا النحو:

((نحن لا نشك في سيد عمر.. سيد عمر عاقل.. سيد عمر عادل.. ولكن "الزوج دو بي" سيفصل في قضيتنا بشكل أفضل)).

وظل جمهور السامعين، الساخط على اليهودي، محافظا على هدوئه، في حين راح سيد عمر من متكئه على مخدته، بهيئته العربية، يتطلع إليه في مكر، بعين غائرة، وبين شفتيه عود من السواك، يستمع إليه ويبتسم. وقوطع اليهودي فجأة وهو مندفع

47) القايد هو نائب الحاكم الفرنسي على مستوى الدائرة الإدارية، وسلطته لا تسري إلا على الجزائريين وحدهم.

48) نطق محرف للعبارة الفرنسية: Juge de paix، ومعناها قاضي الصلح، وقد نقلها الكاتب كما تلفظ بها اليهودي.

في كلامه بشتيمة شديدة اللهجة، أوقفته دفعة واحدة عن الاسترسال في كلامه، وهب من مكانه في ذات الوقت مستوطن إسباني كان قد جاء ليشهد مع القايد، فاقترب من اليهودي وصب على رأسه سلة من الشتائم بكل اللغات، وبكل الألوان، ومن بينها لفظ فرنسي لا يليق بنا يا سيدي أن نردده هنا، لبذاءته، وهو ما جعل ابن سيد عمر، الذي كان يفهم الفرنسية، يحمر خجلا لسماعه في حضور والده، ويغادر المكان –ولنلاحظ هنا إحدى سمات التربية العربية– وبقي الجمهور المستمع محافظا دوما على هدوئه، كما بقي سيد عمر محتفظا بابتسامته، أما اليهودي فقد تراجع مشيا إلى الخلف حتى بلغ الباب وهو يرتعد فرقا، ولكنه ظل يردد لازمته الأبدية "زوج دو بي، زوج دو بي"، ثم خرج. وأسرع الإسباني خلفه، وقد ثارت ثائرته، فلحق به في الشارع، وضربه على وجهه مرتين، فخرَّ اليهودي على ركبتيه، وأطبق يديه على صدره، فقفل الإسباني راجعا إلى الدكان كأنه شعر بشيء من الخجل. وبمجرد أن دخل هب اليهودي واقفا، وأجال بصره برياء في الحشد الذي كان يحيط به، وكان مشكَّلا من كل طينة: من مالطيين، وماهونيين[49] وزنوج، وعرب، وكانوا كلهم متحدين في كره اليهود، ومسرورين برؤية واحد منهم يعامله تلك المعاملة السيئة. وتردد اليهودي هنيهة، ثم أمسك عربيا من طرف برنسه وهو يقول: لقد رأيته يا أحمد[50] رأيته، كنت هنا، ستكون شاهدا، حسن، حسن، ستكون شاهدا. فخلَّص العربي برنسه ودفع اليهودي عنه. إنه لا يدري شيئا، ولم ير شيئا، وأشاح بوجهه،

49) أي من سكان جزيرة بالما مايوركا.

50) هكذا في الأصل، حيث يقلب اليهود في نطقهم الحاء خاء.

فصاح اليهودي المسكين في وجه زنجي كان يقشر حبة هندي (تين شوكي): ولكنك أنت يا قدُّور رأيت المسيحي وهو يضربني؟ فبصق الزنجي احتقارا له وابتعد عن المكان. إنه لم ير شيئا. وهذا المالطي الصغير ذو العينين الفحميتين اللتين تلمعان لمعانا شريرا تحت برنيطته لم ير شيئا هو الآخر، وهذه"الماهونية" ذات البشرة القرميدية، التي فرت ضاحكة وعلى رأسها قفة رمان، لم تر شيئا.

صرخ اليهودي، ترجى، اهتاج، لا يوجد هناك شاهد، ولا أحد رأى شيئا. ولحسن حظه مرَّ في هذه اللحظة اثنان من أبناء ملَّته كانا يسيران في ذلة بمحاذاة الجدران، فاستنجد بهما صارخا: ((أسرعا يا أُخوَيَّ، أسرعا إلى رجل الأعمال، أسرعا إلى"زوج دو بي"، لقد رأيتما أنتما، لقد رأيتما كيف ضرب الشيخ))..

إنني بودي أن أصدق إن كانا قد رأيا شيئا.

ثارت العواطف بقوة في دكان سيد عمر، وراح صبي الدكان يملأ الفناجين، ويشعل الغلايين من جديد، وراح الجالسون يضحكون ملء أفواههم، فضرْبُ اليهودي تسلية حقيقية. ووسط الضجة والدخان انسللت بهدوء نحو الباب. كانت لدي رغبة في التجول ناحية الحي الإسرائيلي، لأعرف كيف قابل اليهود إهانة أخيهم. وجاءني صوت سيد عمر الطيب يدعوني: "موسيو"، تعال تتعشى هذا المساء.. فقبلت الدعوة شاكرا.. وها أنا ذا الآن في الشارع.

في حي اليهود كان الكل متحفزا. لقد أحدثت الحادثة ضجيجا كبيرا، فغادر الجميع دكاكينهم: الطرزيون، والبزّازون، وصانعو البرادع.. إسرائيل كلها كانت في الشارع، الرجال بقبعاتهم المخملية وجواربهم الصوفية الزرقاء، يقفون جماعات، ويتحدثون في ضجة وانفعال، والنساء مصفرات اللون، منتفخات، ومتصلبات مثل الدمى الخشبية، وهن رائحات غاديات نائحات بين هذه الجماعة وتلك، وكُنَّ يرتدين فساتين خالية من الزركشة، تنتهي بحاشية مذهَّبة عند الصدر، ويطوِّقن وجوههن بشرائط سوداء. كان هناك اضطراب شديد وعجلة واندفاع يسود الجمع. أما اليهودي بطل المغامرة فكان يسير متكئا على شاهديه، بين صفين من القبعات، تحت وابل من عبارات التحريض: انتقم لنفسك أيها الأخ، انتقم لنا، انتقم للشعب اليهودي، لا تخش شيئا، فالقانون في صفك.

وتقدم نحوي قزم قبيح المنظر، تفوح منه رائحة القطران والجلد القديم، وقال لي في مسكنة وهو يتنهد تنهدا عميقا: "أرأيت كيف يعامل اليهود المساكين؟ إنه شيخ مُسِنٌّ، انظر إليه، لقد كادوا يقتلونه". والواقع أن الشيخ اليهودي كان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، فقد مر أمامي وقد انطفأ نظره، وتغير وجهه، ولم يكن يمشي، بل كان يجر رجليه. لم يكن هناك شيء يمكن أن يعيد إليه عافيته إلا تعويض سخي، أو الذهاب إلى وكيل أعمال عوض الطبيب..

ووكلاء الأعمال في الجزائر كثيرون كثرة الجراد تقريبا، ويبدو أنها مهنة مربحة، ومزيتها أنها، وفي جميع الأحوال،

تسمح بالدخول إليها من بابها الواسع، دون اختبار أو كفالة أو تدريب، تماما مثل من يدعون الأدب عندنا في باريس، إذ يمكن لأي كان أن يصبح وكيل أعمال في الجزائر، حيث أنه يكفي للقيام بذلك أن تكون ملما بقليل من اللغة الفرنسية والإسبانية والعربية، وأن يكون لديك دائما دليل في حوزتك، وأن تكون فوق كل هذا مدركا لتقلبات أهواء المهنة. ووظيفة الوكيل متنوعة جدا، فهو على التوالي: محامٍ، ورافع دعاوى، وسمسار، وخبير، ومترجم، وماسك حسابات، ومنفذ مهمات، وكاتب عمومي.. إنه "ميتر جاك" المستعمرة، غير أن "أرباغون"[51] لم يكن لديه سوى "ميتر جاك" واحد، في حين أن للمستعمرة من أمثاله ما يزيد عن حاجتها، فعددهم في مليانة وحدها يعد بالعشرات. وتفاديا لدفع مصاريف المكتب يعمد هؤلاء السادة، في الغالب، إلى استقبال زبائنهم في مقهى الساحة الكبرى، ليقدموا لهم استشاراتهم، بين شراب "الشيح" و"الشامبورو"[52]. هل قلت "يقدمون لهم"؟

كان اليهودي الوقور يتجه نحو مقهى الساحة الكبرى، مرفقا بشاهديه فلندعه وشأنه.

عند خروجي من حي اليهود مررت أمام "المكتب العربي"[53] وكان يبدو من الخارج بسقفه الرصاصي، وبالعلم الفرنسي

---

51) ميتر جاك هو مدير أعمال البخيل في مسرحية "البخيل" لموليير، الذي كان يقوم بكل الأعمال دون تحديد. والمستعمرة يقصد بها الجزائر. و"أرباغون" هو البخيل نفسه، بطل المسرحية المذكورة.

52) شراب الشيح أو "الأبسينت" هو نوع من الكحول المستخلص من نبات الشيح، وكان شرابا رائجا بين الأوروبيين في الفترة التي زار فيها الكاتب الجزائر، أما "الشامبورو" فهو قهوة ممزوجة بالنبيذ أو الكحول.

53) المكاتب العربية نظام إداري عسكري يختص بشؤون الجزائريين كان الفرنسيون قد أنشأوه في بداية الاحتلال في مختلف مناطق الجزائر، ثم أصبح فيما بعد مقتصرا على المناطق الجنوبية، ويتكون المكتب من ضابط وقاض واثنين من الكتبة من صف الضباط.

الذي كان يرفرف فوقه، أشبه ما يكون بمقر بلدية قروية. وكنت أعرف المترجم، فدخلت لأدخن معه سيكارة.. وهكذا، وبواسطة السكائر سأتمكن من القضاء على هذا الأحد العبوس.

كان الفناء الذي يؤدي إلى المكتب مزدحما بالعرب، الذين كانوا يلبسون أثوابا رثة، كانوا حوالي خمسين شخصا ينتظرون، وقد جلسوا القرفصاء، على امتداد الحائط، ملتفين في برانسهم، وكانت تفوح من قاعة الانتظار هذه –رغم أنها في الهواء الطلق– رائحة نفاذة تنبعث من الجلود البشرية. فلنمض بسرعة..

في المكتب وجدت الترجمان مشتبكا مع اثنين منهم، وكانا عاريين إلا من غطاء للجسم طويل ومتسخ، وكانا يصرخان صراخا عاليا، ويصحبانه بإشارات ثائرة، وهما يرويان، حسب ما فهمت بالتقريب، حكاية سبحة مسروقة، فجلست على حصير في أحد الأركان ورحت أتفرج. كانت بذلة الترجمان رائعة، ولأن ترجمان مليانة كان يحسن ارتداء اللباس فقد بدت كأنها فصِّلت له خصيصا. كانت البذلة سماوية اللون، ذات عرى سوداء، وأزرار مذهَّبة لامعة، وكان الترجمان أشقر، وردي البشرة، مجعَّد الشعر. كان جنديا رائعا من جنود الخيَّالة، يفيض دعابة ومرحا، ثرثارا بعض الشيء، يتكلم عدة لغات، وهو من أتباع مذهب الشك، حيث تعرَّف على "رينان" في مدرسة اللغات الشرقية[54] وكان من كبار هواة الرياضة أيضا، وعازف مازورقا لا مثيل له، وطبَّاخ "كسكسي" لا يجارى، يقوم بذلك سواء في الخيام العربية، أو في السهرات التي تنظمها

54) يقصد المستشرق والمؤرخ والفيلسوف الفرنسي الشهير "أرنيست رينان" 1823 – 1892، الذي كان أستاذا بمدرسة اللغات الشرقية بباريس، وحاملا لواء مذهب الشك في زمانه.

زوجة نائب عامل العمالة. ولكي نجمل فيه القول نقول عنه إنه باريسي أصيل، هذا هو صاحبنا، فلا تندهشوا من كون النساء مفتونات به، إذ ليس له من منافس في الحظوة لديهن سوى رقيب المكتب العربي، فهذا الأخير، بقميصه المفصل من القماش الرقيق، وبحذائه الطويل العنق، ذي الأزرار الصدفية، يبعث اليأس والحسد في نفوس أفراد المعسكر كله. انتدب للمكتب العربي فأعفي من أعمال السخرة، وأصبح على الدوام في الشوارع، لا يُرى إلا لابسا قفازات بيضاء، مصففا شعره حديثا، يتأبط دفاتر كبيرة تحت ذراعه، يحظى بإعجاب الناس، ويبعث الخشية في نفوسهم، من حيث أنه كان يمثل السلطة.

وتبين لي أن حكاية السبحة المسروقة ما تزال طويلة جدا، فودعت صاحبي دون أن أنتظر النهاية.. وألفيت الفناء، وأنا أنصرف، في حالة اضطراب. كان الجميع يتحلقون حول رجل من الأهالي، طويل القامة، شاحب، مزهو بنفسه، ملتفٌّ في برنس أسود. كان هذا الرجل قد تصارع قبل ثمانية أيام في جبل زكّار مع فهد، فقتله، إلا أن الفهد استطاع أن يأكل نصف ساعد الرجل، فأصبح يتردد صباحا ومساء على المكتب العربي ليضمّد جرحه، وفي كل مرة كان المنتظرون في الفناء يستوقفونه ليروي لهم قصته.. كان يتحدث ببطء، وبصوت جميل وعميق، وبين الحين والآخر كان يزيح جناح برنسه ليعرض ساعده الأيسر الذي كان مربوطا إلى صدره وملفوفا بأقمشة ملطّخة بالدم.

ما كدت أبلغ الشارع حتى داهمتني عاصفة قوية: مطر ورعد وبرق، وريح السيروكو[55] فأسرعت للاحتماء منها، واقتحمت

55) سيروكو: ريح ساخنة محملة بالأتربة والرمال، واللفظة عربية الأصل، مشتقة من اسم "الشرق"، وانتقلت إلى الفرنسية عن طريق اللغة الإسبانية.

أول باب صادفني، فإذا بي أقع داخل وكر للمشردين، كانوا يتكدسون تحت أقواس فناء موريسكي مجاور لمسجد مليانة. كان هذا الفناء هو الملجأ الاعتيادي لحثالة المسلمين، ولذلك يطلق عليه اسم فناء الفقراء.

راحت بعض الكلاب السلوقية العجفاء، التي كانت مغطاة بالحشرات، تحوم حولي في هيئة شرِّيرة، أما أنا فكنت أستند إلى إحدى دعامات الرواق، وأحاول أن أكون رابط الجأش. وتفاديا لتبادل الحديث مع أي كان، رحت أنظر إلى المطر الذي كان يتطاير بعد سقوطه فوق صحن الفناء البرَّاق.

كان المتشردون يقعدون على الأرض، وينامون متكدسين، وبالقرب مني كانت هناك امرأة في مقتبل العمر، جميلة تقريبا، رقبتها وساقاها مكشوفة، وتضع في معصميها وعرقوبيها أساور حديدية ضخمة، وكانت تغني لحنا عجيبا يتألف من ثلاث طبقات حزينة ورخيمة، وكانت أثناء غنائها ترضع طفلا صغيرا عاريا تماما، بشرته بلون البرونز الأحمر، وباليد الأخرى التي بقيت طليقة كانت تدقُّ الشعير في هاوون من الحجر، وكانت الريح العاتية تطرد الأمطار بين الحين والحين، فتغمر رجلي المرضعة وجسم الرضيع، ولكن المرأة المتشردة لم تكن آبهة بذلك، مواصلة أغنيتها تحت وابل المطر، وهي تدق الشعير، وتعطي ثديها للطفل.

وخفَّت العاصفة فاغتنمت الفرصة، وأسرعت بمغادرة فناء العجائب هذا، واتجهت للعشاء عند سيد عمر، حيث كان الوقت قد أزف. وعندما كنت أعبر الساحة الكبرى، قابلت الشيخ اليهودي مرة أخرى، كان يتكئ على وكيل أعماله،

ومن ورائه كان شاهداه يتبعانه مسرورين، وكان هناك رهط من الأطفال اليهود القبيحي المنظر يقفزون حولهم، ووجوههم جميعا تشع بالفرح. لقد تكلف الوكيل بالقضية، وسيطلب من المحكمة تعويضا بألفي فرنك.

كان العشاء عند سيد عمر فاخرا، وكانت قاعة الأكل تفتح على فناء موريسكي أنيق، حيث تغني به حنفيتان أو ثلاث حنفيات فوارة. كان عشاء تركيا ممتازا، ينصح به للبارون "بريس"[56] فمن بين أصناف أكل عديدة، لاحظت دجاجة باللوز، وكسكسا بالفانيل، ولحم حلو، ثقيل بعض الشيء ولكن مذاقه رفيع، وبسكويت بالعسل يسمى "لقمة القاضي". أما الخمور، فليس هناك إلا "الشامبانيا" التي يشرب منها سيد عمر، رغم تحريم الشريعة الإسلامية لها، وذلك حينما يكون الخدم متجهين إليه بظهورهم.

عند انتهاء العشاء انتقلنا إلى غرفة مضيفنا، حيث جيء لنا بأنواع من المربى، وبالغلايين والقهوة، وكان أثاث هذه الغرفة في غاية البساطة، حيث يتكون من ديوان، وبعض الحصائر، وفي أقصى الغرفة سرير كبير جدٌّ مرتفع، تتناثر عليه مساند صغيرة حمراء، مطرَّزة بالذهب، وعلى الحائط كانت هناك لوحة تركية قديمة تخلِّد مآثر أحد أمراء البحر يدعى حمَّادي، ويبدو قياسا عليها أن الرسامين في تركيا لا يستعملون سوى لون واحد في اللوحة الواحدة، فهذه اللوحة تقتصر على اللون الأخضر، فالبحر، والسماء، والمراكب، والأميرال حمادي نفسه[57]، وكل ما في الرسم أخضر، وأي خضرة؟

---

56) لعل الكاتب يشير هنا إلى اسم مطعم مشهور على عهده يقدم الأكلات الشرقية.

57) يبدو أنه تحريف لاسم "الرايس حميدو"، وهو من أصل جزائري، اشتهر كقائد حربي شجاع ومحنك في الحروب البحرية في الفترة العثمانية بالجزائر، أما اللوحة التي يتحدث عنها الكاتب، فيبدو من وصفه لها أنها من نوع المنمنمات الجزائرية وليست لوحة تركية كما يقول.

بعد الانتهاء من تناول القهوة ومن التدخين قمت لأنصرف، حيث يقتضي التقليد العربي المعمول به أن ينصرف الضيوف باكرا، فحييت مضيفي تحية المساء وتركته مع نسائه.. ولكن، أين سأنهي سهرتي؟ فوقت النوم مازال بعيدا، وأبواق الصبايحية[58] التي تعلن انتهاء العمل اليومي مازالت لم يعلُ رنينها بعد، ومن جهة أخرى، فإن المخدّات المذهبة في بيت سيد عمر كانت ترقص حولي رقصات دائرية تمنع عني النوم لو أنا حاولت أن أنام[59].

ها أنا ذا أمام المسرح.. لندخل نتفرج بعض الوقت.

كان مسرح مليانة في الأصل مخزنا للعلف، حوِّل كيفما اتفق إلى قاعة للعرض. تضاء القاعة وقت الاستراحة بمصابيح زيتية كبيرة تقوم مقام الثريات، ويتفرج مشاهدو الدرجة الثالثة وقوفا، ويجلس مشاهدو الدرجة الثانية على مقاعد خشبية، أما مشاهدو الدرجة الأولى فيفتخرون بكونهم يجلسون على مقاعد من القش. ويحيط بالقاعة ممر مظلم، غير مبلَّط، يعطيك إحساسا بأنك في الشارع، حيث لا فرق بين الاثنين.

كانت المسرحية قد بدأت حينما وصلت، ولم يكن الممثلون سيئين، وأعني الرجال منهم، وهذا ما فاجأني كثيرا، فهم يتمتعون بالحيوية والحياة، وكانوا جميعهم تقريبا من الهواة، وكان زملاؤهم فخورين بهم، ويأتون كل مساء ليصفقوا لهم. أما بخصوص النساء، فواحسرتاه.. إنه دائما ذلك النوع من النساء الذي نجده في المسارح الصغيرة في "المقاطعات"، فيه ادعاء ومبالغة وزيف، ومع ذلك فقد استرعت اثنتان من هؤلاء السيدات اهتمامي، وهما يهوديتان من مليانة، كانتا صغيرتي

---

58) نوع من الجنود الخيالة في الجيش الفرنسي، ويتكوَّنون أساسا من رجال القوم، أي من الجزائريين.
59) العبارة غامضة في الأصل، ولعله يقصد بها أنه كان ثملا.

السن، وحديثتي عهد بالتمثيل، وكان أولياؤهما حاضرين في القاعة، وقد بدا عليهم السرور، فهم على يقين أن بنتيهم سوف تكسبان آلاف "الدُّورُوات"[60] من هذه التجارة، خاصة أن أسطورة "راشيل" الإسرائلية، المليونيرة الممثلة، قد وجدت لها صدى بين يهود الشرق.

لم يكن هناك فوق الخشبة ما يثير الضحك والشفقة أكثر من منظر اليهوديتين الصغيرتين.. كانتا تقفان في ركن من الخشبة خجلتين ومملوءتي الوجه بالمساحيق والأصباغ، عاريتي الصدر، متصلِّبتي الجسد، بسبب البرد والخجل، وكانتا ترطنان بين الحين والآخر بجملة لا تفقهان منها شيئا، وأثناء ذلك تروح أعينهما العبرية الواسعة تنظر في القاعة باندهاش.

وأخرجُ من المسرح.. وفي العتمة التي كانت تحيط بي أسمع صراخا في إحدى زوايا الساحة. إنهم، دون شك، بعض المالطيين يتفاهمون فيما بينهم بطعنات الخناجر.

وأقفل راجعا إلى الفندق، أسير على مهل بمحاذاة الأسوار، أشم رائحة أشجار البرتقال والعفص، التي كانت تصعد من السهل، وكان الجو لطيفا، والسماء صافية تقريبا. وهناك في نهاية الطريق يرتفع شبح حائط بقي من أطلال معبد قديم، وهذا الحائط مقدس، حيث تأتي إليه النساء العربيات كل يوم لتعلق عليه النذور، مثل خرق الحياك والفُوَط، أو ضفائر الشعر المخضبة بالحناء، والمربوطة بخيوط الفضة، أو ذيول البرانس.. كل ذلك سيرفرف تحت شعاع نحيل من ضوء القمر عندما تهب نسمة خفيفة من نسمات الليل.

---

60) مفردها "دورو" وهي عبارة مازالت متداولة إلى يومنا هذا في الشارع الجزائري، وتطلق على القطع النقدية من فئة 5 سنتيمات، وقد احتفظنا بالكلمة كما جاءت في الأصل.

الجـــــراد *

ألفونس دوديه

Les Sauterelles

ذكرى أخرى من الجزائر، ثم نعود إلى طاحونتنا...

في ليلة وصولي إلى تلك المزرعة لم أستطع النوم، منعه عني جدة البلد، واهتزازات الطريق، وعواء الذئاب، بالإضافة إلى حرارة مضجرة تكتم على الأنفاس، وتخنقها خنقا، كأن نسيج "النَّاموسية" كان لا يسمح بمرور أدنى هبَّة من نسيم... حين فتحت نافذتي في الصباح الباكر بدا لي كأن هناك سحابة صيف ثقيلة تتحرك ببطء، تضرب بين السواد والوردي، تطفو في الهواء كسحابة بارود فوق ميدان قتال.

لم تكن هناك ورقة واحدة تتحرك، وفي تلك البساتين الجميلة الممتدة تحت ناظري كانت أشجار الكرم تقف متساوية المسافة فيما بينها، على المنحدرات، تحت الشمس الحارة التي تعطي للنبيذ حلاوته، في حين تحتمي الفاكهة الأوروبية في ركن ظليل، أما أشجار البرتقال الصغيرة، وأشجار المندرين، فتمتد في صفوف مجهرية طويلة، والكل يحتفظ بذلك المظهر العابس.

كان سكون الأوراق ذاك ينتظر العاصفة. حتى أشجار الموز، ذلك القصب الطويل الأخضر الطري الذي تحركه أدنى نسمة، وتشوِّش شعره الناعم المتناهي الخفة، كان ينتصب صامتا ومستقيما في شكل قنبرات منتظمة(61).

* من مجموعة الكاتب "Les lettres de mon moulin" (رسائل طاحونتي).

61) مفرد قُنبُرة وهي ذلك الريش القليل الذي يكون على رأس بعض الطيور، مثل القبَّرة.

بقيت لحظة أتأمل هذه المزرعة الساحرة التي اجتمعت فيها كل أشجار العالم، حيث تطرح كل واحدة منها في فصلها زهورها وثمارها المنتزعة من منبتها الأصلي. وكان هناك مجرى مائي يلمع بين حقول القمح وغابات الفلين الكثيفة، ويشعر منظره بالطراوة في تلك الصبيحة الخانقة. وفي الوقت الذي كنت أمتّع النظر فيه بفخامة وانسجام هذه الأشياء، وبهذه المزرعة الجميلة بأقواسها الموريسكية، وبأسطحها التي لاحت بيضاء مع ضياء الفجر، وبإسطبلاتها وحظائرها التي تتجمع حولها، كنت أفكر في نفسي أنه منذ عشرين عاما، حين نزل هذا الرجل الشجاع وزوجته في هذا السهل الصغير من الساحل، لم يجدا سوى "برّاكة"[62] حارس قبيحة، وأرض مهملة، تنتفش فيها أشجار نخل قميئة وعوسج، فكان عليهما أن ينشئا كل شيء، ويبنيا كل شيء. وفي كل لحظة يثور فيها العرب كان يتحتم عليهما أن يتركا المحراث ليحملا البندقية. أضف إلى هذا الأمراض، ورمد العيون، وأنواع الحمى المختلفة، وسنين الغلة العجاف، وعشوائية نقص الخبرة، والعراك مع إدارة منغلقة التفكير ومترددة على الدوام. كم من جهود استنفذت، وكم من كدٍّ، وكم من سهر لا يعرف الفتور.

وبالرغم من أن أحوال الجو السيئة قد انتهت، وبالرغم من الثروة التي حصلا عليها، ولم يكن ذلك بالأمر الهين، فإن الرجل والمرأة على السواء مازالا حتى الآن أول من يستيقظ في المزرعة. ففي هذه الساعة المبكرة كنت أسمع وقع أقدامهما، ذاهبين وراجعين في مطابخ الطابق الأرضي الواسعة، يراقبان قهوة

62) برّاكة: بيت خشبي.

العمال، وبعدها بقليل يدق جرس، ثم يظهر العمال بعد لحظات على الطريق في شبه استعراض، وكان منهم مزارعو كروم بورغونيون[63] وفلاحون قبائليون بأثوابهم الرثة وطرابيشهم الحمراء، وحفاري أرض ماهونيون، بأقدام عارية، ومالطيون، ولوقوانيون[64] كانوا يشكلون شعبا من الشتات صعب الانقياد.

وأمام الباب راح صاحب الضيعة يوزع على كل واحد منهم مهمة عمله لذلك اليوم، بعبارات قصيرة، ولهجة شديدة بعض الشيء. وعندما انتهى الرجل الطيب، رفع رأسه وأجال بصره في السماء في قلق، ثم قال، وقد وقعت عينه علي في النافذة:
– جو سيئ للزراعة، هاهي ذي ريح "السيروكو" تهب.

وبالفعل، فمع الارتفاع المتدرج للشمس كانت هبات من الهواء اللاهب والخانق تصلنا من الجنوب، كأنما كان هناك باب فرن يفتح ويغلق.

كنا قلقين، لا يقر لنا قرار، ولا ندري ماذا سيكون. ومرت الصبيحة بأكملها ونحن على هذه الحال، نتناول القهوة على حصائر في الرواق، دون أن تكون لنا الشجاعة لنتحدث أو نتحرك. وكانت الكلاب تتمدد في أوضاع منهكَة، باحثة عن البرودة في ظل الشرفات.

وأعاد لنا الغداء بعض هدوئنا، وكان طعاما كثيرا وفريدا من نوعه، حيث كان يشتمل على أسماك الشبوط والتَّرويت[65]

---

63) نسبة إلى منطقة "بورغوني" بفرنسا، المشهورة بزراعة الكروم وجودة الخمور.
64) نسبة إلى منطقة "لوقا" في إيطاليا.
65) الشبوط نوع من الأسماك التي تعيش في الماء العذب مثل ماء الأنهار والبحيرات، والترويت أسماك نهرية وبحرية من فصيلة السلمونيات.

والخنزير البري، والقنفذ، وزبدة "سطاوالي"، ونبيذ "كريسيا"، والجوَّافة[66]، الموز. كانت تغريبة كاملة من المآكل، تشبه كثيرا الطبيعة الشديدة التعقيد التي كنا محاطين بها..

كنا على وشك القيام من حول المائدة حين ارتفعت أصوات عالية من وراء الباب/النافذة، التي كانت مغلقة لتقينا حرارة الحديقة التي تحولت إلى أتون: الجراد.. الجراد..

وشحب وجه صاحبي كمن أخبر بكارثة، وخرجنا على عجل. وخلال عشر دقائق عم في المنزل الذي كان قبل قليل صامتا وقع أقدام مستعجلة، وأصوات غير مميزة، ضائعة وسط اضطراب اليقظة. واندفع الخدم من ظل الأروقة التي كانوا ينامون فيها إلى الخارج وهم يدقون بالعصي والمداري والمهاريس على أية آنية معدنية طالتها أيديهم، من قدور نحاسية، وجفان زنكية، وطاسات. وكان الرعاة ينفخون في مزاميرهم القصبية، وبعضهم في أصداف بحرية، وفي أبواق الصيد، فكان هذا يشكل ضجيجا رهيبا، متقطعا، يطغى بنوطة عالية الحدة على زغاريد نساء عربيات كنَّ قد هرعن هناك من "دوَّار" مجاور[67] إذ غالبا ما كان يكفي –على ما يبدو– إحداث دوي كبير، أو رجفة رنين في الهواء لإبعاد الجراد ومنعه من النزول..

..لكن أين هي هذه الدوييات الرهيبة؟ لم أشاهد في السماء اللامعة من شدة القيظ إلا سحابة قادمة في الأفق بلون النحاس، متماسكة كسحابة بـرَد، يصحبها صفير ريح عاصفة

66) الغوَّافة أو الجوافة حسب النطق المصري هي كلمة معربة من كلمة Goyave الفرنسية، المستعارة من الإسبانية، التي أخذتها بدورها من لغة قبائل الهنود الحمر، وينبت شجرها عادة في البلدان الحارة، وثمرتها عنبية عطرة تؤكل ناضجة، وتربب أيضا. راجع: معجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابي.

67) الدوَّار: قرية جبلية صغيرة، وقد استعملها الكاتب في النص بلفظها العربي.

في ألف غصن من أغصان غابة. كانت تلك السحابة جرادا يمسك بعضه بعضا بأجنحته الجافة الممددة. كان يطير ككتلة. وبالرغم من صراخنا، وجهودنا، كانت السحابة تتقدم باستمرار، وتلقي على المنبسط الأرضي ظلا شاسعا. وسرعان ما وصلت فوق رؤوسنا. وبدا لنا على حواشي السحابة، في لحظة من زمن، ما يشبه انسلال ثوب أو تمزقه. وانفصلت مثل القطرات الأولى لوابل المطر بعض الجرادات بشكل مميز، وبلون ضارب إلى الشقرة، ثم انهمرت كامل السحابة، وسقط ذلك البرَد من الحشرات غزيرا وضاجًّا. وصارت الحقول، على امتداد البصر، مغطاة بالجراد، بجراد ضخم وسمين في حجم الإصبع..

..وحينئذ بدأت عملية الإبادة. كان هناك صوت سحق شنيع، أشبه ما يكون بهرس التبن، بالمداري، بالفؤوس، بالمحاريث. كان الجميع يقلبون تلك الأرضية المتحركة، وبمقدار ما كان يقتل منه بقدر ما كان يوجد. كان يتجمع في طبقات، وقد تشابكت أرجله الطويلة، وما كان منه في الأعلى كان يقفز قفزات استنجاد، فيهب في وجه الخيول المشدودة إلى المحاريث، في هذه الحرث الغريب، وكانت كلاب الضيعة وكلاب الدوار التي انتشرت عبر الحقول تنقض عليه وتهرسه في غضب.

وفي هذه الأثناء وصلت كتيبتان من القناصة، يتقدمهما نافخو الأبواق، جاءت لنجدة هؤلاء المستوطنين البؤساء.. وتغيرت حينئذ طريقة التقتيل، فعوض أن يسحق الجنود الجراد كانوا يحرقونه بنشر سحائب بارود طويلة الذيل.

وبعد أن تعبتُ من القتل، وأصابني التقزز من الرائحة الموبوءة، قفلت راجعا. وفي داخل الضيعة كان هناك من الجراد بمقدار ما كان في الخارج تقريبا، فقد دخل من فتحات الأبواب والنوافذ، ومن فتحة المدخنة. وعلى أطراف أطر النوافذ، وفي الستائر التي كان قد أكلها، كان يتنقل، ويسقط، ويطير، ويتسلق الجدران البيضاء، راسما عليها ظلا ضخما يضاعف من قبحه، وناشرا باستمرار تلك الرائحة التي لا تطاق.

وعند العشاء، كان لابد من الامتناع عن شرب الماء، فقد تلوثت الخزانات والأحواض والآبار، وأحواض تربية السمك. وفي غرفتي في المساء، ومع أنه كان قد قتل فيها أعداد من الجراد، فقد كنت أسمع دائما خشخشة تحت قطع الأثاث، وهذه الفرقعة التي تحدثها مجنات الأجنحة التي تذكر بفرقعة قرون القرنيات[68] عند اشتداد الحر. وفي هذه الليلة أيضا لم أستطع النوم. من جهة أخرى بات محيط الضيعة كله ساهرا، وكانت ألسنة اللهب تنتقل على أرض المنبسط من هذا الطرف إلى الطرف الآخر. وكان رجال القناصة ما يزالون مستمرين في القتل.

وفي الغد، عندما فتحت نافذتي مثل ما فعلت بالأمس، كان الجراد قد ذهب، مخلفا المزرعة وراءه في حالة خراب. لم تعد هناك زهرة، ولا بقية من عشب، كل شئ كان أسود، مقروضا ومفحَّما، لا رفرفة لورقة، التي هي حياة الشجرة، ولا تعرف

68) قرون أو سِنفات (بكسر السين) أو حُبلات (بضم الحاء) هي القشور التي تحوي بداخلها ثمر القرنيات كالفول أو العدس أو الفاصوليا، وتنفلق حين تنضج. "معجم الألفاظ الزراعية" للأمير مصطفى الشهابي.

أشجار الموز والمشمش والخوخ والمندرين إلا من هيئة أغصانها العارية بلا جمال.. ونظفت أحواض الماء والخزانات. وكان الفلاحون يحفرون الأرض في كل مكان لقتل البيوض التي خلفها الجراد، فقلبت كل مِدرة[69]، فتِّتت بعناية..

..وينقبض القلب لمرأى آلاف الجذور البيضاء، المليئة بالنسغ وهي تبرز على سطح تلك التربة المقلوبة الخصبة.

69) المِدرة: القطعة من الطين أو التربة الندية.

وسام الآغا *

الفونس دوديه

Un décoré du 15 Août

خرجت ذات مساء في الجزائر للاصطياد، ففاجأتني في نهاية اليوم عاصفة قوية بسهل الشلف، على بعد عدة فراسخ من مدينة الشلف، ولم يكن هناك أي أثر يلوح للعين لقرية أو لمحطة سفر[70].

لم تكن هناك سوى أشجار نخل قميئة، وأحراش من أشجار البطم، وأراض واسعة محروثة تمتد على امتداد البصر، وكان نهر الشلف قد تضخم بفعل الأمطار، وبدأ هديره يعلو بشكل ينذر بالخطر، فصرتُ مهددا بقضاء ليلتي وسط المستنقعات، غير أن المترجم المدني لمكتب مليانة[71] الذي اصطحبني تذكَّر، لحسن الحظ، أن هناك قرية كانت تختفي وراء مرتفع من الأرض، وهو يعرِف الآغا الذي يرأسها، فقررنا أن نذهب إليه، وننزل عليه ضيوفا في تلك الليلة.

وبلغنا وسط "الدُّوار" قبل أن نتنبه إلى ذلك، بسبب أن هذه القرى العربية السهلية تقع وسط أشجار العوسج والتين الشوكي، كما أن أكواخها التي تبنى بالطين الجاف شديدة الالتصاق بالأرض. وتساءلت عن سبب ذلك الصمت الكبير

* نشرت ضمن مجموعة الكاتب "حكايات الإثنين": Contes du lundi وهي في الأصل بعنوان "موسوم 15 أوت": Un décoreé du 15 Aout.

70) محطات تقام في طريق العربات التي تنقل المسافرين بين المدن، تُبدَّل فيها الخيل، ويستريح بها المسافرون.

71) يقصد المكتب العربي، أو (البيرو أراب).

الذي كان يخيم على القرية، أهو الوقت المتأخر، أم هو المطر؟ ولكن تبين لي أن القرية حزينة أشد الحزن، أو كأنها فقدت الحياة تحت وطأة قلق ممضٍّ. وفي الحقول المحيطة بها كانت الغلة تبدو مهملة، فالقمح والشعير الذي كان قد دخل المخزن في أماكن أخرى ما يزال هنا يرقد في الحقول، وقد أوشك أن يتهرّأ في مكانه. كما كانت الأمشاط والمحاريث التي علاها الصدأ ملقاة هنا وهناك، مهملة تحت الأمطار، وكل العشيرة يلفها جو الكآبة نفسه واللامبالاة.

حتى الكلاب أضربت عن النباح فلم تنبح لمقدمنا إلا قليلا، وبين الحين والآخر كان يتناهى إلى سمعنا صراخ أطفال قادم من أعماق أحد الأكواخ، أو يتبدى لنظرنا رأس حليق لأحد الأطفال، أو حائك مثقوب[72] لأحد الشيوخ. وهنا وهناك أحمرة صغيرة ترتعد من البرد وسط الأحراش، ولكن لم يكن هناك حصان واحد، ولا رجل واحد، وكأن القرية مازالت تعيش زمن الحروب الكبرى، حيث يتغيب الفرسان مدة شهور.

لم يكن بيت الآغا –الذي كان عبارة عن بناية مستطيلة، بيضاء الجدران، خالية من النوافذ– أكثر إيناسا من البيوت الأخرى، فقد وجدنا الإسطبلات مفتوحة، ومرابط الخيل والمعالف خالية، ولم يكن هناك أي سائس يستقبل جوادينا، فقال لي مرافقي: هيا بنا إلى المقهى لنرى.

كان هذا المحل الذي يطلقون عليه اسم "مقهى" شبيها بصالونات الاستقبال في منازل الكُبراء العرب، فهو بيت

72) الحائك، الذي ينطق مخففا "الحايك" هو عباءة بيضاء من قطعة واحدة تصنع من الصوف أو الكتان يلف فيها الرجل أو المرأة جسمه، وحايك المرأة يختلف في تفصيله وفي طريقة لبسه عن حايك الرجل.

في داخل بيت، مخصص للضيوف والسابلة، حيث يقوم فيه هؤلاء المسلمون الخيِّرون المهذبون الشديدو الحفاوة بواجب الضيافة المقدس، مع الحفاظ في الوقت نفسه على حرمة الحياة العائلية الخاصة التي يوصي بها الدين.

كان مقهى الآغا سي سليمان مفتوحا وصامتا مثل إسطبلاته، وكانت حيطانه العالية المطلية بالجير، وكذلك الأسلحة المعلقة عليها، وريش النعام، والديوان الواسع الرديء النوع، الذي كان يحيط بالصالة، كان كل ذلك يلمع بفعل زخات المطر التي كانت هبَّات الريح تقذف بها من الباب.. ومع ذلك فقد كان هناك أناس داخل المقهى، أولا القهوجي، وهو شيخ قبائلي رث الثياب، كان يجلس مقرفِصا، وواضعا رأسه بين ركبتيه بالقرب من موقد مقلوب، ثم ابن الآغا، وهو ولد جميل، مصاب بالحمى، شاحب الوجه، كان جالسا على الديوان، ملتفا في برنس أسود، وعند رجليه يقعي سلوقيان كبيران. لم يتحرك لمقدمنا أحد، ما عدا حركة من رأس أحد السلوقيين، والتفاتة من الولد، حيث تنازل بنظرة محمومة واهنة نحونا من عينيه الجميلتين السوداوين.

وبادر المترجم بالسؤال عن سي سليمان أين هو؟ وصدرت عن القهوجي إشارة مبهمة وهو يومئ من فوق رأسه نحو الأفق: بعيدا، بعيدا جدا.. وفهمنا أن سي سليمان يكون قد ذهب في سفر بعيد، ولكن، لأن المطر كان لا يسمح لنا باستئناف طريقنا توجه المترجم بالكلام إلى ابن الآغا قائلا له بالعربية: إننا من أصدقاء والده، وأننا نطلب اللجوء عنده حتى نهار الغد، فهب

الولد في الحال، بالرغم من الحمى التي كانت تلهب جسمه، ليصدر أوامره للقهوجي، ثم يشير لنا بحركة مؤدبة نحو الديوان، وكأنه يقول لنا: أنتم ضيوفي، وحيانا بالطريقة العربية، وذلك بإحناء الرأس، وتقبيل أطراف الأصابع، ثم غادر المكان ملتفا في برنسه، ثابت الخطى، عليه وقار الأغوات، وسادة البيوتات.

على إثر ذلك أشعل القهوجي موقده من جديد، ووضع فوقه غلايتين في منتهى الصغر، وأثناء إعداده القهوة لنا تمكنا من انتزاع بعض التفاصيل عن رحلة سيده، وعن الضياع الذي كانت القبيلة تعيشه. كان القبائلي يتحدث بسرعة، وبإشارات تشبه إشارات العجائز، وكان كلامه مقعرا، جميل النبرة، سريعا أحيانا، مقطعا أحيانا أخرى بفترات صمت طويلة، كنا نستمع خلالها إلى صوت هطول المطر فوق فسيفساء الأفنية الداخلية، وإلى قرقرة الماء في الغلايتين، وإلى عواء الذئاب الذي كان يتردد بالآلاف في السهول.

وهاكم ما جرى لسي سليمان المسكين قبل أربعة أشهر، أي يوم 15 أوت، فقد تلقى في هذا اليوم وسام "اللجيون دونور" الذي وُعد به وطال انتظاره له، علما أنه الآغا الوحيد في هذه المقاطعة الذي لم يحصل عليه، حيث أن الآخرين كانوا جميعا حاصلين على الوسام من رتبة "فارس" أو "ضابط"، بل إن اثنين منهم أو ثلاثة كانوا يزينون صدور حياكهم بالشريط الأكبر من رتبة "كومندور"، وكانوا يتمخطون فيه بكل براءة، وهو ما رأيت الباش آغا بوعلام يفعله مرارا. والسبب الذي منع سي سليمان من الحصول على الوسام هو خصامه ذات مرة مع رئيسه

مسؤول "المكتب العربي"، على إثر خلاف في لعب الورق. ولأن العسكريين في الجزائر أصحاب نفوذ كبير، فإن اسم الآغا سليمان ظل يقدم منذ عشر سنوات في قوائم المترشحين للوسام دون أن يتمكن من المرور. ويمكنكم أن تتصوروا فرحة سي سليمان الشهم وهو يتلقى صباح يوم 15 أوت من يد أحد الجنود الصبايحية، الذي جاء من مدينة الشلف، يحمل علبة الوسام الصغيرة المذهبة، ومعها شهادة الاستحقاق، فقامت "باية" أحب نسائه الأربعة إلى نفسه بتعليق صليب فرنسا على برنسه المنسوج من وبر الجمل، وكان ذلك مناسبة للقبيلة لإقامة الولائم وسباقات الخيل. ودقت الطبول، وعزفت نايات القصب طوال الليل، وكان هناك رقص، وابتهاج غامر، وذبائح كثيرة من الغنم. ولكي لا يكون الحفل ناقصا من أي شيء فقد جيء بمدّاح مشهور من "جندل" فألّف على شرف سي سليمان أغنية رائعة تبدأ هكذا:

شوّر جِهتنا يا الريح   وهات امْعاك اخْبر مْليح[73]

وعندما طلع نهار اليوم التالي، استدعى سي سليمان أتباعه، وأتباع أتباعه، واتجه بهم في كامل عددهم وعدتهم نحو مدينة الجزائر، ليقدم شكره للحاكم. وعند أبواب المدينة توقف الرجال، كما يقتضي العرف، واتجه الآغا بمفرده إلى قصر الحكومة، فقابل "الدوق دو مالاكوف"، وأكد له إخلاصه لفرنسا بعبارات فخمة، من ذلك الأسلوب الشرقي المزخرف، حيث أنهم مازالوا منذ ثلاثة آلاف عام يشبّهون كل الفتيان بالنخيل، وكل النساء بالغزلان.

73) اتجهي نحونا أيتها الريح   وهات معك البشرى السارة.

وبعد القيام بهذه الواجبات، صعد الآغا نحو أعالي المدينة[74] حتى يراه الناس هناك. ومر على المسجد فأدى فرائضه، ووزع الصدقات على الفقراء، ودخل عند الحلاقين والطرزيين، واشترى لنسائه العطور والحرير المزركش بالزهور أو الأغصان، والأحزمة الزرقاء المطعَّمة بالذهب، واشترى للآغا الصغير حذاء أحمر يلبسه الفرسان. وكان يدفع دون مساومة، وينشر فرحته مع "الدوروات" الجميلة، فشوهد داخل البازارت، وجالسا على الحصير يشرب القهوة على أبواب محلات التجار الموريسكيين، الذين كانوا يقدمون له التهاني، وكان الناس يتجمعون حوله، يدفعهم الفضول وهم يقولون : "هذا سي سليمان.. لامبورور[75] بعث له الصليب". وكانت الفتيات العائدات من الحمَّام، وهن يأكلن الحلوى، يرسلن من تحت النقاب الأبيض نظرات طويلة من الإعجاب نحو ذلك الصليب الفضي الجميل الجديد، الذي كان صاحبه يحمله بفخر.. آه، إن في الحياة أحيانا أويقات طيبة.

وعندما حل المساء، كان سي سليمان يستعد للحاق بقومه، بل إنه كان قد وضع رجله في الركاب حين أقبل عليه "شاوش" من شواش "دار العمالة"[76] مبهور الأنفاس، وقال له: ها أنت ذا هنا، يا سي سليمان.. لقد بحثت عنك في كل مكان.. تعال بسرعة عند الحاكم.. إنه يريد أن يتحدث إليك.

وتبعه سي سليمان، دون أن يساوره أدنى قلق، غير أنه وهو يقطع فناء القصر الموريسكي الكبير، تقابل مع رئيس

74) يقصد حي القصبة.

75) أي الأمبراطور نابليون الثالث. وقد احتفظنا باللفظة كما سمعها المؤلف، وأوردها في النص بحرفيتها.

76) دار العمالة هنا هي مقر الولاية العامة، والشاوش هو الإسم الشائع للحاجب في اللهجة العامية الجزائرية.

المكتب العربي، الذي ابتسم له ابتسامة ماكرة، فأرعبته هذه الابتسامة من عدوه، ودخل صالون الحاكم وقد استولى عليه الاضطراب.

استقبله الماريشال في جلسة مرتخية على أحد الكراسي، وقال له بخشونته المعهودة، وبصوته الأغن الذي اشتهر به، والذي كان يرتعد فرقا لسماعه كل المحيطين به:
– سي سليمان، يافتاي، أنا متأسف.. لقد وقع خطأ.. فالوسام لم يكن موجها إليك، وإنما هو لقائد بني زقزوق، وعليه، فلابد أن ترجع الصليب.

واحمر وجه الآغا البرونزي الجميل كأنه قُرِّبَ من فرن حدَّاد، واهتز جسمه الضخم في حركة متشنجة، وتوهجت عيناه، ولكن لم يكن ذلك إلا برقا، فقد عاد فأسبلهما في ذات الوقت تقريبا، وانحنى أمام الحاكم وهو يقول:
– أنت السيد المطاع.

ونزع صليبه من فوق صدره، ووضعه بيد مرتعشة على طاولة، وقد التمعت الدموع في طرف أهدابه الطويلة، وعندها ربَّت العجوز الماكر على كتفه وهو يقول:
– لا تبتئس يا بطل، ستحصل عليه في السنة المقبلة.

ومد إليه يده يودعه في براءة متصنعة، إلا أن الآغا تظاهر بعدم رؤية اليد الممدودة إليه، وانحنى دون أن ينبس بجواب، وخرج، فهو يعرف ما مدى صحة وعد الماريشال له. لقد رأى أن شرفه قد أهين إلى أبد الآبدين، نتيجة أحبولة من المكتب العربي.

كان خبر تجريده من الوسام قد تردد صداه بعد في المدينة، لذلك كان يهود شارع "باب عزّون" ينظرون إليه وهو يمر أمامهم ويضحكون، أما التجار الموريسكيون فكانوا على العكس من ذلك يغضّون عنه الطرف، في هيئة إشفاق على حاله، فكان هذا الإشفاق يؤلمه أكثر من ذلك الضحك، فراح يمشي ملتصقا بالجدران، باحثا عن الأزقة المظلمة. وكان موضع الصليب الذي انتزع منه يحرقه كجرح مفتوح، وكان طوال الوقت يفكر: "ماذا سيقول فرساني عني؟ ماذا ستقول زوجاتي؟"، وعندها كانت تهاجمه نوبات من الغضب، فيرى نفسه يدعو إلى الجهاد، هناك على الحدود المغربية، حيث ما تزال هذه المناطق دائما حمراء بفعل الحرائق والمعارك[77] أو يرى نفسه يهاجم شوارع مدينة الجزائر على رأس فرسانه، فينهب دكاكين اليهود، ويقتل المسيحيين، ويسقط هو بدوره في تلك الفوضى الكبيرة التي ستخفي عاره.

كل هذه التصورات كانت تبدو له ممكنة إلا رجوعه إلى قبيلته..وفجأة، ومن خلال مشاريعه الانتقامية انبثقت بذهنه فكرة "لامبورور" كما ينبثق الضوء. إن فكرة العدالة والقوة تتلخص في نظر سي سليمان، كما تتلخص في نظر كل العرب، في هذه الكلمة وحدها "لامبورور"، إنه أمير المؤمنين الحقيقي بالنسبة لمسلمي عهد الانحطاط، أما لامبورور الآخر، الموجود في إسطنبول فهو يبدو لهم من بعيد ككائن روحاني، أو البابا المخفي الذي لم يُبقِ لنفسه سوى السلطة الروحية، ولا تخفى علينا في الظرف الراهن قيمة هذه السلطة، لكن لامبورور، بمدافعه الكبيرة، وبجنوده، وأسطوله الحديدي..

77) تتزامن الفترة التي يتحدث عنها الكاتب هنا مع ثورة أولاد سيدي الشيخ الأولى على وجه التقريب.

ما إن خطر لامبورور على بال سليمان حتى اعتقد أن مشكلته قد حُلَّت، فمن المؤكد أنه سيرد إليه صليبه، والمسألة لا تتطلب منه أكثر من سفر لمدة ثمانية أيام، ولا ضير على قومه أن ينتظروه على أبواب المدينة مدة كهذه.

في اليوم التالي ركب سي سليمان البحر متوجها إلى باريس، في غاية الخشوع والصفاء النفسي، كأنه متوجه ليحج إلى مكة، ولكن مضى الآن أربعة شهور على سفر سي سليمان المسكين، ومع ذلك فإن رسائله التي كان يبعث بها إلى زوجاته لا تشير إلى حد الآن إلى موعد رجوعه، فمنذ أربعة شهور والآغا البائس تائه في ضباب باريس، يمضي حياته في الجري بين الوزارات، واقعا تحت رحمة الإدارة الفرنسية الرهيبة، يهزأ به الموظفون حيث ما حل، ويتقاذفونه من مكتب إلى آخر. ويظل يمسح ببرانسه أوساخ المقاعد الخشبية لقاعات الانتظار، آملا، بلا جدوى، في الحصول على مقابلة، وفي المساء يُشَاهد، بوجهه المستطيل الحزين والمضحك بسبب وقاره الشديد، ينتظر المفتاح في مكتب أحد الفنادق، ثم يصعد إلى غرفته مرهقا من الجري والاتصالات، لكنه فخور دوما، متعلق بالأمل، ومستميت استماتة المقامر في الجري وراء شرفه الضائع.

وخلال هذه المدة كان فرسانه يقرفصون في"باب عزون"، ينتظرون عودته في قدرية شرقية، والجياد مربوطة، تصهل في الجهة المقابلة للبحر.. أما في مقر القبيلة فكان كل شيء معلقا، الحصاد وقد دبَّ إليه الموت في حقله بسبب غياب الأيدي، والنساء والأطفال يعدُّون الأيام ووجوههم متجهة نحو باريس. إنه شيء يبعث على الرثاء أن تَجُر قطعة من الشريط الأحمر

وراءها كل هذه الآمال، وكل هذا القلق، وكل هذه الخسائر، فمتى ينتهي كل هذا؟ "الله وحده يعلم" قال القهوجي وهو يتنهد ويمد ساعده العاري ليُرينا عبر الباب المُوارب، المطل على السهل البنفسجي الحزين، هلالا صغيرا أبيض يطل في سماء مُبتلَّة.

علــــومــــة*

غي دي موباسان

Guy de Maupassant
Allouma

كي دو موباسان 1850 – 1893، روائي وكاتب قصة بامتياز، زار الجزائر ثلاث مرات: الأولى سنة 1881 بصفة صحفي مراسل لجريدة "لوكولوا" Le Gaulois لتغطية أخبار "ثورة الشيخ بوعمامة"، وقد أتاحت له زيارة مناطق عديدة من الغرب الجزائري إلى أن وصل مدينة البيض، ودامت حوالي شهرين، من 17 جويلية إلى منتصف سبتمبر، والرحلة الثانية كانت بصفة شخصية سنة 1887 واستمرت ثلاثة أشهر، من 4 أكتوبر إلى 6 يناير 1888 وزار فيها مناطق أولاد نايل، وبجاية، وقسنطينة، وواصل رحلته إلى تونس قاصدا مدينة القيروان، كتب مذكرات سفر عن كل هذه المناطق، نجدها ضمن كتابيه:"في الشمس" و"حياة التيه". أما الرحلة الثالثة فكانت في شهر سبتمبر 1890 وكانت رحلة استشفائية في المقام الأول لأن صحته كانت قد تدهورت بفعل مرض السفلس، وأصبحت تنتابه نوبات من الهلوسة القريبة من الجنون.

اخترنا للكاتب هنا ثلاث قصص هي: "علومة" و"ذات مساء أو في بجاية" وهما منشورتان ضمن مجموعته "اليد اليسرى" و"السلسلة العربية" التي نشرت ضمن مجموعته "ييفات".

قال لي أحد الأصدقاء، إذا مررت مصادفة نواحي "برج أبَّابة" أثناء رحلتك إلى الجزائر، فعليك بزيارة صديقي "أوبال"، الذي هو أحد المستوطنين هناك. ونسيت اســـم أوبـــال، كما نسيت

---

* هذه القصة من مجموعة موباسان "اليد اليسري": La main gauche ويرمز هذا التعبير لدى الفرنسيين إلى العلاقات غير الشرعية بين الرجل والمرأة.

اسم أبابة، ولم يخطر لي هذا المستوطن على البال حينما أتيت عنده بمحض المصادفة.

كنت منذ أكثر من شهر أتجول راجلا في تلك المنطقة الرائعة التي تمتد من الجزائر إلى شرشال، إلى "أورليان فيل"[78]، إلى تيارت. كانت منطقة غابية وقاحلة في الوقت نفسه، عظيمة ومتواضعة، تقابلك بها، بين مرتفعين، غابات عميقة من الصنوبر تقع في أودية ضيقة، حيث تتدفق بها سيول الشتاء، وتتسبب في سقوط أشجار ضخمة في المنحدرات، يستعملها العرب جسورا للعبور، وتتسلق بجذوعها الميتة الأخلاف والنباتات التي تبعث حياة جديدة، وبها منخفضات في ثنايا الجبل المجهولة ذات جمال أخّاذ، فضفاف شعاب منبسطة، تغطيها أشجار الدفلى، يعجز الخيال عن تصورها. ولكن الشيء الذي ترك في القلب أغلى الذكريات في هذه الجولة هو ذلك المشي الذي كنت أقوم به بعد الظهر، على طول الطريق الذي كانت منعرجاته قليلة الأشجار من جهة الشاطئ، حيث تطل على أراضي فسيحة متموجة وضاربة إلى الحمرة، من البحر الفاتح الزرقة إلى سلسلة الونشريس، الذي يضم بين جنباته غابات سنديان "ثنية الأحد".

في ذلك اليوم ضللت طريقي. كنت قد تسلقت قمة جبل، حيث ظهر لي من وراء سلسلة من الروابي سهل المتيجة الواسع، وظهر لي من الخلف على قمة صخرة أخرى، وعلى بعد لا يكاد يرى منه تقريبا، النصب الغريب الذي يطلق عليه اسم "قبر الرومية"، وهو كما يقال عنه، مقبرة لإحدى أسر ملوك

78) مدينة الشلف حاليا.

موريطانيا. وشرعت في النزول من القمة متجها نحو الجنوب، مكتشفا أمامي منطقة محدودبة تمتد من قمم الجبال الشامخة نحو السماء المشرقة، إلى أعتاب الصحراء. كانت منطقة مرتفعة وموحشة، وكأنما تلك الروابي كلها كانت مكسوة بجلد الأسد، ومُخاطة إلى بعضها بعضا. وبين الحين والآخر كانت ترتفع وسطها حدبة مسننة صفراء، أكثرها علوا، أشبه بظهر جمل كثيف الشعر.

كنت أسير سريع الخطو، خفيفا، مثلما هو الشأن حينما يكون الشخص سائرا في مسالك ملتوية في منحدرات جبل. لا شيء ثقيل في هذه الجولات النشطة في الهواء الطلق بتلك الأعالي، لا شيء ثقيل، لا الجسم، ولا القلب، ولا الأفكار ولا حتى الهموم. كنت خاليا من كل شيء في ذلك اليوم، من كل ما يسحق حياتنا ويعذبها، لا شيء سوى فرحة ذلك النزول.. ولاحت لي من بعيد مضارب للعرب، وكانت عبارة عن خيم داكنة اللون، مسننة ومشدودة إلى الأرض كأنها أصداف بحرية تلتصق بالصخور، أو أكواخ مصنوعة من أغصان الأشجار، حيث يخرج منها دخان رمادي، وحوله كانت أشكال آدمية من الرجال أو النساء تلبس البياض وتطوف حولها بخطوات وئيدة. وكانت نواقيس القطعان تحدث رنينا غير واضح في نسمة المساء.

كانت أشجار التُّوت في طريقي تنحني علي بشكل غريب، وهي محملة بثمارها الأرجوانية التي كانت ملقاة هنا وهناك على الطريق. كانت لها هيئة الأشجار الشهيدة، حيث يسيل منها عرق دموي، لأنها كانت تتدلى في نهاية كل غصين بزرة

شبيهة بقطرة دم. وكانت الأرض من حولها مغطاة بمطر العذاب هذا. وكانت الرِّجْل تسحق حبات التوت فتترك على الأرض آثار الإجرام. وبين الحين والآخر، كنت وأنا مارٌّ، أقطف بقفزة أنضجَ الحبات لآكلها.

كانت كل هذه الشعاب، في هذا الوقت، تمتلئ بضباب ضارب إلى الحمرة، راح يتجمع شيئا فشيئا، كذلك البخار الذي يتصاعد من أجسام الثيران، أما على سلسلة المرتفعات التي كانت تعترض الأفق عند حدود الصحراء[79] فكانت السماء تشع بنور قدسي، وكانت هناك خطوط ذهبية ممتدة تتناوب وخطوطا دموية –دمٌ مرة أخرى، دمٌ وذهب، ذلك هو تاريخ البشرية كله– وأحيانا تنفتح خلالها فُرجة ضيقة تطل على زرقة مخضرَّة تبدو نائية كأنها الحلم.

آه، كم كنت بعيدا، بعيدا عن كل الأشياء، وعن كل الناس، عن كل ما يهتم به بجوار الشوارع[80] بعيدا حتى عن نفسي، حيث صرتُ كائنا تائها، بلا وعي ولا تفكير، مجرد عين تمضي فترى وتحب أن ترى، بعيدا أكثر فأكثر عن طريقي التي ما عدت أفكر فيها، ولم ألاحظ أنني تهت عنها إلا عندما اقترب الليل.

وكان الظل يهمي على الأرض كأنه شؤبوب من ضياجر، ولم يكن يتراءى لي على امتداد البصر سوى الجبل. وبدت لي خيامٌ في منخفض من الأرض، فنزلت نحوها، وحاولت أن أُفهِم أول عربي قابلته في الطريق عن الوجهة التي كنت أبحث عنها. هل فهمني؟ لا أدري، ولكنه أجابني جوابا طويلا لم أفهم منه شيئا..

79) واضح أن الكاتب لم يكن لديه تصور صحيح عن بداية الصحراء.
80) العبارة غير واضحة في الأصل.

وفي حالة يأسي تلك، كنت على وشك قضاء ليلتي ملتفا في بساط، غير بعيد عن ذلك المخيم، لولا أنه خيل إلي أنني فهمت من ضمن الكلمات الغريبة التي كانت تخرج من فمه عبارة برج أبَّابَة، فكررت له: برج أبابة، نعم، نعم، وأخرجت له فرنكين، وهما ثروة بالنسبة إليه، فانطلق وانطلقت على أثره.

سرت في الليل البهيم مدة طويلة، أتبع هذا الشبح الباهت، الذي كان يجري أمامي حافيا عبر المسالك الكثيرة الحجارة، حيث كنت أتعثر باستمرار. وفجأة ظهر لنا ضوء، ووصلنا أمام بيت أبيض الطلاء، وهو عبارة عن قلعة صغيرة مستقيمة الجدران، وبلا نوافذ خارجية، وحين طرق الباب نبحت الكلاب في الداخل، وسمعت صوتا فرنسيا يسأل: من هناك؟ وأجبته:

– أهنا يسكن السيد "أوبال"؟

– بلى. وفُتح البابُ فوجدتني أمام السيد أوبال بعينه.

كان فتى طويلا أشقر، ينتعل سَبَّاطا، ويضع في فمه غليونا، له هيئة هرقل وديع.

قدمت له نفسي، فبسط لي يديه قائلا:

– البيت بيتك يا سيدي.

وبعد ربع ساعة كنت أتعشى بنهم، أمام مضيفي الذي ظل يدخن.

لقد كنت أعلم قصته، فبعد أن ضيَّع مالا كثيرا على النساء، استثمر الباقي منه في الأرض الجزائرية، فغرس الكروم، وكانت سوقها رائجة، فكان سعيدا بذلك. وبالفعل، فقد كان مظهره

هادئا، ويدل على الارتياح. لم يكن في استطاعتي أن أفهم كيف ركن هذا الباريسي المتهتِّك إلى هذه الحياة الرتيبة، في هذه العزلة، فسألته:

– منذ متى وأنت تقيم هنا؟

– منذ تسعة أعوام.

– ألا تحس بأحزان مبرحة؟

– لا، إننا نتكيف في الأول مع هذا البلد، ثم ننتهي إلى التعلق به. إنك لا تستطيع أن تصدِّق كيف يستولي على الناس عن طريق جملة من الغرائز الحيوانية نجهلها في ذاتنا، فنتعلق به أولا عن طريق أعضائنا، حيث يلبي فينا رغبات خفية لا نستطيع تعليلها، فالهواء والمناخ يغزوان أجسادنا بالرغم منا، والنور المبهج الذي يغمرنا يبقي الروح، بقليل من الكلفة، صافية راضية. إنه ينفُذ إلى ذاتنا في تدفق مستمر عبر أعيننا، بحيث يمكننا أن نقول بحق إنه يغسل كل الزوايا المظلمة في الروح.

– لكن.. والنساء؟

– آه، إنهن قليلات نوعا ما.

– نوعا ما، فقط؟

– يا إلهي.. نعم.. نوعا ما. لأننا نعثر عليهن حتى في أوساط القبائل حيث يوجد بعض الأهالي المتسامحين الذين يفكرون في ليالي "الرومي". والتفتَ نحو العربي الذي كان قائما على خدمتي –وكان فتى فارع الطول، أسمر، عيناه السوداوان تلمعان تحت عمامته– وقال له:

– محمد، انصرف.. وسأناديك عند الحاجة.

ثم توجه إلي قائلا:
- إنه يفهم الفرنسية، وسأحكي لك قصة لَعِبَ فيها دورا كبيرا.

بعد انصراف الرجل شرع يحكي: منذ أربعة أعوام تقريبا كنت هنا، وكنت ما أزال لم أستقر إلا قليلا بعدُ في هذا البلد الذي بدأ لساني يتلجلج بنطق لغته. ولكي لا أقطع صلتي نهائيا بالمُتَع -مع أنها جرَّت علي الويلات- كنت مضطرا إلى القيام بين الحين والحين برحلة لبضعة أيام إلى مدينة الجزائر، وكنت قد اشتريت هذه المزرعة، أو هذا "البرج" الذي كان من قبل موقعا عسكريا محصنا، على بعد بضع مئات من الأمتار من مخيم الأهالي[81]، حيث كنت أستخدم الرجال منهم في زراعتي.

ومن هذه القبيلة التي هي فرع من أولاد "تاجة" اخترت لخدمتي الخاصة، عند قدومي، فتى قويا هو ذلك الذي رأيته، واسمه محمد بن لَمْهر. وقد أخلص في خدمتي أشد الإخلاص. ولأنه لا يريد أن ينام داخل بيت لم يتعود عليه، فقد نصب خيمته على بعد خطوات من الباب، حتى أناديه من نافذتي عند الحاجة.

أما عن حياتي، فتستطيع أن تتصور مجراها، فأنا أقضي يومي في متابعة استصلاح الأرض، وغرس الكروم، وأصطاد قليلا، وأذهب لأتعشى مع ضباط الموقع العسكري المجاور، أو يأتون هم لتناول العشاء عندي. أما بخصوص المُتع، فقد سبق أن قلت لك إن مدينة الجزائر كانت تمنحني أجود الأنواع، وبين الحين والآخر كان يستوقفني أثناء جولاتي عربي متسامح وعطوف،

81) الأهالي أو "الأنديجان"، وهي لفظة أطلقها الرومان على الجزائريين قديما وأحياها المستوطنون الفرنسيون.

ليعرض علي امـرأة من القبيلة، يأتيني بـها ليـلا إلى بيتي، فأقبل أحيانا، ولكنني أرفض في أغلب الأحيان، تفاديا لما يمكن أن يخلق لي ذلك من متاعب.

وذات مساء، بعد عودتي من جولة لي في الحقول، وكان ذلك في بداية الصيف، احتجت إلى محمد، فدخلت خيمته دون أن أناديه، وكثيرا ما كنت أفعل ذلك، فرأيت على زربية من تلك الزرابي الكبيرة الحمراء المصنوعة من الصوف الرفيع لجبل عمور، السميكة مثل مطرح، والناعمة، امرأةً من بنات الهوى، عارية تقريبا، نائمة، وذراعاها على عينيها.. كان جسمها البض يلمع تحت شلال الضوء المتسرب عبر طرف الخيمة المرفوع، فبدا لي كأكمل عيِّنة من عيِّنات الجنس البشري التي رأيتها في حياتي. إن النساء هنا جميلات، وفارعات، ومتناسقات الملامح والتقاطيع تناسقا نادرا.. ارتبكت قليلا، فسدلتُ طرف الخيمة من جديد ودخلت بيتي.

إنني أهوى النساء.. وقد اخترق ذاتي برق من ذلك المنظر وأحرقني، فبعث في عروقي ذلك الأوار القديم، المخيف، الذي كان السبب في وجودي هنا.. كان الجو حارا، فقد كان ذلك في شهر جويلية، فقضيت جل الليل في النافذة، وعيناي مركزتان على البقعة السوداء التي كانت ترسمها خيمة محمد على الأرض.

حينما دخل غرفتي في اليوم التالي، نظرت في وجهه بتمعن، فأحنى رأسه كالمضطرب أو المذنب. أتراه قد أدرك ما كنت اطلعتُ عليه؟ وباغتُّه بالسؤال:

– محمد، أنت متزوج إذن؟

ورأيت وجهه يحمر وهو يتمتم : نو، موسيي[82].

وكنت ألزمه التكلم بالفرنسية، وآخذ منه دروسا في العربية، وهو ما كان ينتج عنه في الغالب لغة وسيطة لا مثيل لها في عدم التجانس.. وأضفت:

– ..والمرأة التي توجد عندك إذن؟

فتمتم : إنها من الجنوب.

– وبعد؟ إنها من الجنوب، ولكن هذا لا يفسر سبب وجودها في خيمتك.

ودون أن يجيب على سؤالي أردف:

– إنه جميل جدا[83].

– حقا، هل هذا صحيح؟ إذا كان الأمر كذلك، فعليك عندما تستقبل امرأة جميلة من الجنوب كهذه أن تدخلها إلى خيمتي، لا إلى خيمتك. هل سمعت يا محمد؟

– وي، موسيي[84].

أعترف بأنني بقيت طوال اليوم واقعا تحت التأثير العدواني لذكرى منظر البنت العربية المتمددة على الزربية الحمراء، وعندما رجعت في وقت العَشاء كانت لي رغبة شديدة في اختراق خيمة محمد من جديد، محمد الذي ظل طوال الأمسية يؤدي خدمته كالمعتاد، ويطوف حولي بوجهه الهادئ.. وفي العديد من المرات كنت أهم بأن أسأله ما إذا كان ينوي إبقاء تلك الآنسة الجميلة القادمة من الجنوب مدة طويلة تحت سقفه الوبري.

82) نطق محرف للعبارة الفرنسية Non, Monsieur (لا، يا سيدي) وقد أثبتها الكاتب محرّفة في النص كما نطقها محمد، فحافظنا عليها كما هي.

83) يريد الكاتب أن ينبه بطريقة غير مباشرة أن محمد لا يفرق في الفرنسية بين المذكر والمؤنث.

84) نعم ، يا سيدي.

في حوالي الساعة التاسعة، وتحت تسلط ذلك الاشتهاء العنيد للمرأة، الذي يشبه غريزة الصيد في الكلاب، خرجت لأشم الهواء، وأحوم قليلا حول المخروط الوبري الداكن[85] الذي لاحت لي من خلاله نقطة ضوء موقدة.. بعد ذلك ابتعدت، حتى لا يباغتني محمد بالقرب من مأواه، وعندما عدت بعد ساعة من ذلك تبين لي بوضوح شبح محمد ذاته تحت خيمته، فأخرجت مفتاحي من جيبي ودخلت البرج، حيث ينام فيه مثلي "ماسك حساباتي" وفلاّحان من فرنسا، وطباخة عجوز جئت بها من مدينة الجزائر.

وصعدت الدرج، ففوجئت عندما لاحظت أشعة الضوء تتسرب من تحت باب غرفتي. وفتحت الباب فإذا بي أرى أمامي فتاة تجلس على كرسي من القش، بالقرب من المنضدة التي كانت شمعة تضيء فوقها. كان وجهها جامدا كالصنم، وكانت تنتظرني على ما يبدو في هدوء، وقد تقلدت كل تلك الحلي الفضية التي تتقلدها نساء الجنوب في الأرجل والأيدي، وفي الرقبة، وحتى على البطن. وألقت علي نظرة طويلة، من عينين زاد الكحل من اتساعهما. وكانت تزينها على جبهتها وخديها وذقنها أربعة أوشام زرقاء، رسمت بدقة على البشرة. وكانت ذراعاها المثقلتان بالأساور تستريحان فوق فخذيها اللذين كانت تغطيهما جبةٌ حريرية حمراء[86] تنحدر من الكتفين، كانت تلبسها.

حينما رأتني أدخل، هبت من مكانها ووقفت أمامي، تكسوها حليها الوحشية، في هيئة استسلام أنوف. قلت لها بالعربية:

---

85) الخيمة.

86) كلمة "جُبّة" جاءت في نص الكاتب بلفظها العربي.

– ماذا تفعلين هنا؟
– أنا هنا، لأنني أُمرتُ أن آتي هنا.
– من أمرك؟
– محمد.
– حسنا.. اجلسي..
وجلست مسبلة العينين، فبقيت قبالتها أتأملها.

كان وجهها عجيبا، منسجما ودقيق القسمات، ومتوحشا نوعا ما، إلا أن فيه غموضا روحانيا كتمثال "بوذا". وكانت الشفتان ممتلئتين ومصطبغتين بصبغة حمراء مُزهرة، نجد لها مثيلا في أماكن أخرى من جسمها، تشير إلى اختلاط دمها اختلاطا خفيفا بالدم الأسود، حتى وإن كانت يداها وذراعاها بيضاء بياضا لا عيب فيه.

وترددت فيما ينبغي أن أفعله.. كنت مضطربا، ومستثارا، ومرتبكا. ورحت أطرح عليها أسئلة أخرى لكي أربح بعض الوقت، وأعطي لنفسي مهلة للتفكير، عن أصلها، وعن وصولها إلى هذا البلد، وعن علاقتها بمحمد، ولكنها لم تكن تجيب إلا عن تلك الأسئلة التي لا تهمني إلا بدرجة أقل، فقد استحال علي أن أعرف لماذا جاءت، وما هو القصد من وراء ذلك، وبأمر من جاءت، ولا منذ متى، أو ماذا جرى بينها وبين خادمي..

وكأنها أدركت قصدي حين هممت أن أقول لها: "ارجعي إلى خيمة محمد"، فقامت فجأة، ورفعت ذراعيها العاريتين، فانزلقت أساورها الرنانة بأكملها نحو كتفيها، وعقدت يديها خلف عنقي، وأخذت تشدني إليها في رجاء ورغبة لا تقاوم..

كانت عيناها المشعتان برغبة الإغراء، وبدافع حب التغلب على الرجل، ذلك الذي يجعل من نظرة المرأة، الخالية من الطهر، أخَّاذة كعيون السنانير.. كانت تناديني، تشدني إليها، تجردني من كل مقاومة، تؤجج في نفسي أوارا عنيفا. كان صراعا قصيرا، صامتا، عنيفا، يدور بين الأحداق فقط، ذلك الصراع الأبدي بين الوحشين الإنسانيين: الذكر والأنثى، حيث ينتهي الصراع دائما بانهزام الذكر.

كانت يداها خلف رأسي تجذبني بضغط بطيء، متنامٍ، لا يقاوم، كأنه قوة ميكانيكية، تجذبني نحو الابتسامة الحيوانية لشفتيها الحمراوين، حيث أطبقتُ عليهما شفتيَ فجأة، وأنا أضم إلى حضني ذلك الجسم العاري تقريبا، والمثقل بالأساور الفضية الرنانة من الرقبة إلى الرجلين.

كانت منفعلة، رشيقة ومعافاة كبهيمة، مع سمْتٍ، وحركات، ولطائف، بالإضافة إلى رائحة كرائحة الغزال. ذلك ما جعلني أجد في قبلاتها مذاقا نادرا، مجهولا، غريبا على حواسي، كمذاق الفاكهة الاستوائية.

في وقت مبكر.. أقول: في وقت مبكر، لعله وقت تباشير الصباح الأولى، أردت أن أطردها، ظانا أنها ستذهب بالطريقة نفسها التي جاءت بها، دون أن أسأل نفسي بعدُ ما عساني أفعل بها، أو ما عساها تفعل بي، ولكنها بمجرد أن فهمت قصدي تمتمت قائلة: إذا طردتني الآن، أين تريدني أن أذهب؟ سأقضي بقية الليل نائمة في العراء. اتركني أنام على الزربية عند رِجل سريرك.

ولم أجد ما أقوله لها ولا ما أفعله. وفكرت أن محمدا يتطلع الآن بدوره إلى نافذة غرفتي المضاءة، وراحت تتشكل في ذهني بوضوح أسئلة لم أطرحها على نفسي خلال لحظات الاضطراب الأولى.

قلت لها: ابقي هنا، سنتحدث.

اتخذتُ قراري في ثانية واحدة، حيث أن هذه الفتاة قد أُلقيتْ هكذا بين يدي، فلماذا لا أبقيها وأتخذ منها شبه عشيقة وأَمةٍ، أخفيها داخل بيتي على شاكلة نساء الحريم؟ ويوم أملُّها سيكون من السهل علي في جميع الأحوال أن أتخلص منها بطريقة أو بأخرى، لأن هذه المخلوقات في الأرض الإفريقية، هي على وجه التقريب مِلك لنا جسدا وروحا.

قلت لها: إنني أريد أن أكون طيبا معك، وسأعاملك بطريقة تجعلك غير شقية، ولكنني أريد أن أعرف من أنت، ومن أين جئت.

وفهمتْ أنه لابد لها أن تتحدث، وأن تروي لي قصتها، أو على الأصح أن تروي لي قصة.. لأنها ستكذب في كل ما تقوله، كما يكذب كل العرب دائما، بسبب أو بغير سبب. إن الكذب هو إحدى الميزات المدهشة جدا، والمستعصية على الفهم في سلوك أهل البلد، فهؤلاء الناس الذين تجسد فيهم الإسلام حتى صار جزء منهم، فَقوْلب فطرتهم، وبدَّل جنسهم البشري تبديلا كاملا، وجعلهم يختلفون روحيا عن الآخرين، بقدر ما يختلف الزنجي في لون جلده عن الرجل الأبيض، هؤلاء الناس كذابون حتى النخاع، إلى درجة تجعلنا لا نستطيع

أن نغفل ذكر هذه الميزة. فهل يعود ذلك إلى دينهم؟ لا أدري. إنه لابد لك أن تعيش بينهم لكي تدرك كيف أن الكذب، الذي هو جزء من ذاتهم وقلبهم وروحهم، قد تحول عندهم إلى طبيعة ثانية، وإلى ضرورة من ضرورات الحياة.

وعليه، فقد روت لي بأنها إبنة "قايد" من أولاد سيدي الشيخ[87] من امرأة سباها والدها في إحدى الغارات على الطوارق.. وإذن فلابد أن تكون هذه المرأة أمة سوداء، أو على الأقل نتيجة اختلاط أول بين الدم العربي والدم الزنجي[88] إذ أن للزنجيات -كما هو معروف- أهمية كبيرة داخل الحريم، حيث يقُمن بدور الإثارة الجنسية.. ومع ذلك فلا شيء يشير إلى أصلها ذاك، ما عدا ذلك اللون القرمزي في الشفتين، ولون التُّوت الداكن في نهديها المستطيلين، الناهدين والمطواعين كأنهما مشدودان بلوالب. أما ماعدا هذه العلامات التي لا تخطئها العين الحصيفة فهي تنتمي إلى الجنس الجميل لسكان الجنوب: بيضاء، رشيقة، وجهها دقيق القسمات، ومحدد بخطوط مستقيمة وبسيطة، كأنه صورة رأس في رسم هندي. عيناها جِدُّ متباعدتين، تزيدان من هيئة الجلال الذي تتمتع جوَّابة الصحراء هذه بشيء منه.

لم أعرف عن حقيقة حياتها أي شيء محدد، فقد روت لي تفاصيل غير مترابطة، بدت لي أنها تصدر كيفما اتفق عن ذاكرة مُشوَّشة، وكانت تدخل فيها ملاحظات صبيانية في غاية اللطافة، وتعكس رؤية كاملة لعالم الترحال كما انطبع في ذهن

87) جدير بالتذكير هنا أن زيارة موباسان الأولى للجزائر كانت بصفته مبعوثا لجريدة "لوكولوا" لتغطية أخبار ثورة أولاد سيدي الشيخ على الفرنسيين بقيادة الشيخ بوعمامة.
88) واضح أن الكاتب يعتقد -حتى وإن جاء الكلام على لسان المستوطن- أن الطوارق من الزنوج.

سنجاب كان يقفز من خيمة إلى خيمة، ومن محطة ترحال إلى محطة أخرى، ومن قبيلة إلى قبيلة. وكانت تتخذ في روايتها هيئة جادة، كتلك التي يظهر بها عادة هذا الشعب ذو الثياب الفضفاضة.. ويتسم وجهها بسيماء صنم يهذر، مع وقار مضحك بعض الشيء. وعندما فرغت من الحكي بدا لي أنه لم يعلق بذهني أي شيء من هذه الحكاية الطويلة، المليئة بالأحداث التي لا معنى لها، التي كانت تخزنها في مخها الضئيل.

وسألت نفسي ما إذا كانت –بكل بساطة– قد خدعتني بهذه الثرثرة الفارغة والجادة، التي لم تفدني بأي شيء عنها، أو عن أي حدث في حياتها.. ورحت أفكر في هذا الشعب المغلوب الذي نقيم بينه، أو بعبارة أصح: يقيم بيننا، هذا الشعب الذي بدأنا نتعلم لغته، فنراه يحيا يوميا تحت خيَمِه الشفافة القماش، ونفرض عليه قوانيننا وتشريعاتنا وعاداتنا، ونجهل عنه كل شيء، نعم نجهل عنه كل شيء، أتسمعني؟ كأننا لم نكن موجودين هنا منذ ما يقرب الآن من ستين سنة، لا همَّ لنا سوى النظر إليه.. إننا لا ندري ما يجري تحت هذا الكوخ المبني بالعيدان، أو تحت ذاك النسيج المخروطي الشكل، المسمَّر في الأرض بأوتاد على بعد عشرين مترا من أبوابنا، كما لا ندري، وبالقدر نفسه، ما يفعلونه، ولا ما يفكرون فيه، ولا من هم أولئك العرب الذين قيل عنهم متحضرين، ويسكنون البيوت الموريسكية بمدينة الجزائر، سواء خلف جدران مساكنهم المدهونة بالجير في المدينة، أو خلف سياج الأغصان الذي يسوِّر أكواخهم، أو خلف هذا الستار الرقيق الداكن من شعر الجمل، الذي تعبث به الريح.. إنهم يعيشون بالقرب منا، غير معروفين، غامضين، كذّابين،

مُرائين، خاضعين، مبتسمين، منطوين على أنفسهم. لو قلت لك إنني بنظرة من بعيد، عبر منظاري المقرب إلى المخيم المجاور، يمكنني أن أتكهن بما يقومون به من أباطيل، وطقوس، وممارسات أخرى لا حصر لها بالنسبة إلينا، بل لا تخطر على بالنا بالمرة. ولعله لا يوجد شعب غُزي بالقوة، أمكن له أن يفلت تماما على هذا النحو من سيطرة الغالب الفعلية، ومن تأثيره المعنوي، وإصراره على معرفة المغلوب، بلا جدوى.

وشعرت فجأة بهذا الحاجز الغامض، غير القابل للاختراق، الذي أغلقته الطبيعة غير المفهومة بين الأجناس كما لم أشعر به أبدا، يقوم بين هذه الفتاة العربية وبيني، بين هذه المرأة التي أعطت، وأسلمت نفسها، وأهدت جسدها لملامساتي، وبيني أنا الذي امتلكتها..

سألتها وقد فكرتُ في ذلك لأول مرة: ما اسمك؟ فظلَّتْ صامتة للحظات، ورأيتها تختلج، وبدا عليها كأنها نسيت أنني كنت هناك معها، ملتصقا تماما بها، وخمَّنتُ حينها أن هذه الدقيقة كانت كافية لأن يهبط عليها النوم، وكان نوما غلاَّبا، مفاجئا، وشبه صاعق، كأي شيء ينقضُّ على الحواس المتقلِّبة للنساء. وردَّتْ في غير اكتراث، يخالطه تثاؤب أوقفته في فمها: علُّومة..

فاستأنفتُ: أترغبين في النوم؟

– نعم.. أجابت.

– نامي إذن.

فتمددت بهدوء على البطن إلى جانبي، واضعة جبهتها على ذراعيها المتصالبتين، وشعرتُ في الحين تقريبا أن فكرها الهارب، المتوحش، قد انطفأ في ذلك الهدوء. أما أنا فقد رحت أحلم وأنا أنام إلى جانبها، محاولا أن أفهم: لماذا أعطاها لي محمد؟ أتراه قد تصرف كخادم شهم يضحي من أجل سيده إلى حدِّ التنازل له عن المرأة التي استدرجها إلى خيمته لنفسه؟ أم أنه كان قد خضع في ذلك إلى فكرة أكثر تعقيدا، وأكثر نفعية، وأقل كرما، بإلقائه هذه المرأة التي أعجبتني على سريري؟

إن للعربي، حين يتعلق الأمر بالنساء، كل أنواع الاحتشام الصارم، وكل أنواع المجاملات غير المصرح بها، ولا نستطيع أبدا أن نفهم أخلاقه الصارمة والسهلة أكثر من فهمنا لبقية مشاعره الأخرى.. أألا أكون بدخولي خيمته عن طريق المصادفة قد استبقت النوايا الطيبة لهذا الخادم البعيد النظر، الذي خصني بهذه المرأة، صديقته، أو المتآمرة معه، أو ربما عشيقته؟.. كل هذه الافتراضات انثالت على ذهني وأتعبتني إلى درجة أنني انزلقت بدوري، بكل هدوء، في نوم عميق.

واستيقظت على صرير الباب. دخل محمد ككل صباح ليوقظني. فتح النافذة فتدفق منها نور النهار ليضيء جسم علُّومة، التي كانت ما تزال نائمة على السرير، وبعدها التقط من فوق الزربية بنطلوني، وصدريتي، وسترتي، من أجل أن ينفض عنها الغبار. ولم يلق أية نظرة على المرأة التي كانت تنام بجانبي، ولم يبدُ عليه أنه كان يعلم، أو أنه لاحظ وجودها هناك. كان يبدو عليه وقاره المعتاد، محتفظا بمشيته المعتادة، وبالسحنة ذاتها، إلا أن الضوء، والحركة، والدوي الخفيف لرجلي الرجل الحافيتين،

والإحساس بالهواء النقي على البشرة وفي الرئتين، أخرجت علُّومة من خَدَرها. مدَّدتْ ذراعيها، والتفتت، وفتحت عينيها، ونظرت إلي، ونظرت إلى محمد بعدم الاهتمام ذاته، وجلست ثم تمتمت:

– إنني جائعة اليوم.

وسألتها: ماذا تريدين أن تأكلي؟

– "قهوة"[89].

– قهوة وخبز مع الزبدة؟

– نعم.

كان محمد يقف بالقرب من فراشنا، وثيابي على ذراعيه، ينتظر الأوامر، فقلت له:

– هات الفطور لعلُّومة ولي.

وخرج دون أن يَنِمَّ وجهه على أي اندهاش أو أدنى تضايق. وعندما غادر سألت الفتاة العربية : أتريدين أن تسكني في بيتي؟

– بلى، أرغب في ذلك كثيرا.

– سأعطيك شقة لك وحدك، وسأحضر لك امرأة تخدمك.

– إنك كريم، وسأكون ممتنَّة لك.

– لكن، إذا كانت سيرتك غير حسنة فسوف أطردك من هنا.

– سأفعل كل ما تطلبه مني.

وأخذت يدي وقبّلتها دلالة على الخضوع. ودخل محمد حاملا الفطور على طبق، فقلت له: علومة ستقيم في البيت، فأفرش الزرابي في الغرفة، وفي نهاية الرواق، وأحضر لخدمتها زوجة "عبد القادر الهدارة".

– وي، موسيي.

89) بلفظها العربي في الأصل.

هذا كل ماكان.. وبعد ساعة من ذلك كانت جميلتي العربية تقيم في غرفة واسعة، مضيئة. وحين جئت لأتأكد أن كل شيء على ما يرام، طلبت مني في رجاء أن أهديها خزانة بمرآة، فوعدتها بذلك، وتركتها مقعية على زربية من زرابي جبل عمور، والسيكارة في فمها، وهي تثرثر مع العجوز العربية التي كنت قد طلبتها لخدمتها، كأنما كانتا تتعارفان منذ سنين.

2

طوال شهر كنت فيه سعيدا معها، متعلقا بشكل غريب بهذه المخلوقة التي تنتمي إلى جنس آخر، وتبدو لي من نوع آخر من البشر تقريبا، ولدتْ في كوكب مجاور.

لم أحبها، لا، ففتيات هذه القارة البدائية لا تُحَب، وبينهن وبيننا، بل بينهن وبين ذكورهن الطبيعيين، العرب، لا يمكن لزهرة بلاد الشمال الصغيرة الزرقاء أن تتفتح[90] إنهن أقرب إلى حيوانية الإنسان، إن لديهن قلوبا شديدة الغلظة، وأحاسيس قليلة الرقة، بحيث لا يمكن لها أن توقظ في نفوسنا الإثارة العاطفية التي هي شِعر الحب. لاشيء من الثقافة، ولا نشوة فكرية تتمازج مع النشوة الحسية التي تثيرها فينا هذه الكائنات اللطيفة والعديمة.. ومع ذلك فإنهن يشددننا إليهن، ويأخذننا مثل الأخريات، ولكن بشكل مختلف، أقل عنادا، وأقل قسوة، وأقل إيلاما. إن ما كنت أحس به نحو هذه مازلت لحد الآن لا أعرف كيف أشرحه بشكل دقيق. لقد قلت لك منذ قليل إن هذا البلد، إفريقيا العارية هذه، العاطلة من الفن، الخالية من كل اللطائف الفكرية، تغزو أجسامنا شيئا فشيئا،

---

90) تعبير فرنسي شائع يقصد به مشاعر الحب، وهي المشاعر التي ينفيها المستوطن هنا عن العرب

بسحر غير معروف، ولكنه أكيد، بمداعبة الهواء، باللطف الدائب لأسحارها وأماسيها، بضوئها المبهج، بمتعها الخفية التي تغمر كل أعضائنا. وعليه، فقد استولت علي علومة بالكيفية نفسها، بألف افتتان آسرٍ، خفي وظاهر، بإغراء نفّاذ، مردُّه ليس إلى عناقها، لأنها كانتْ تتصف بعدم اكتراث شرقي متأصل، ولكن مرده إلى استسلامها اللطيف.

تركت لها الحرية الكاملة في الذهاب والرجوع على هواها، فكانت تقضي عشية من اثنتين على الأقل في المضارب المجاورة، وسط نساء الفلاحين من الأهالي العاملين عندي، كما كانت تقضي أحيانا نهارا بأكمله تتطلع إلى نفسها في مرآة خزانة "الأكاجو" التي أحضرتها من مليانة. كانت تبدي إعجابها بنفسها عن وعي تام، فتقف أمام الباب الزجاجي الكبير حيث تتابع حركاتها باهتمام عميق ووقور، وتمشي مُميلة رأسها بعض الشيء إلى الخلف، حتى تطمئن على وركيها وكشحها، وتلتفت، وتبتعد، وتقترب، ثم تجلس، وقد تعبت أخيرا من الحركة، على طنفسة، وتبقى في مواجهة نفسها، عيناها في عينيها، والوجه صارم، والنفس غارقة في هذا التأمل.

بعد ذلك بمدة قصيرة، لاحظت أنها كانت تخرج كل يوم تقريبا بعد الغداء، وتختفي تماما حتى المساء. وشغلني أمرها بعض الشيء، فسألت محمدا إن كان يعلم بما عساها أن تكون مشغولة أثناء كل تلك الساعات الطويلة التي تغيب فيها، فأجابني في هدوء:

– لا تتعب نفسك، فقريبا سيحل رمضان، ولا بد أنها تذهب للتعبد.

هو نفسه بدا عليه أنه كان سعيدا بوجود علومة في البيت، غير أنني لم أباغتهما فيما بينهما ولو مرة بأدنى علامة مثيرة للشك، ولم يظهر عليهما ولو مرة أنهما يخفيان عني شيئا، أو يتفقان فيما بينهما على شيء، أو يواريان شيئا ما.

وإذن، فقد قبلت الوضع على ما كان عليه دون أن أفهمه، تاركا الزمن ومصادفات الحياة تفعل فعلها. وكنت أحيانا، وبعد أن أراقب أراضي، وكرومي، ومستصلحاتي الزراعية، أقوم راجلا بجولات طويلة. أنت تعرف الغابات الرائعة لهذا الجزء من الجزائر، وشعابها التي لا يمكن اختراقها تقريبا، حيث أشجار الصنوبر المقطوعة تعترض مجرى السيول، وحيث تبدو تلال أشجار الدفلى الصغيرة من أعالي الجبال كزرابي شرقية تنبسط على طول مجرى الماء، أتدري أنه في هذه الغابات وعلى أطرافها، حيث يخيل إليك أن لا أحد سبق له أن دخلها، قد تعثر فجأة على قبة ثلجية البياض، تضم رفات ولي متواضع، ولي معزول، ما يكاد يزار إلا من حين إلى حين، من قبل بعض المريدين العنيدين، الذين يأتون من الدُّوار المجاور، ومعهم شمعة ليشعلوها فوق ضريح الولي الصالح.

وذات مساء، وأنا في طريق عودتي، مررت على مقربة من واحدة من هذه المُصلَّيات المحمدية، وحين ألقيت نظرة عبر الباب المفتوح دوما، رأيت امرأة تصلي أمام الضريح. كانت لوحة رائعة، هذه المرأة العربية وهي تجلس على الأرض في تلك الغرفة الخَرِبة، حيث تدخل الريح على هواها، وتجمع في الزوايا أكواما صفراء من الإبر الدقيقة الجافة المتساقطة من الصنوبر. واقتربت لأرى جيدا، فتبين لي أنها علومة. لم ترني، ولم تسمعني،

كان انشغالها بالولي يستغرق كل كيانها. كانت تتحدث بصوت خفيض، تتحدث إليه معتقدة تماما أنها معه بمفردها، وتبوح لولي الله بكل همومها، وأحيانا كانت تصمت قليلا لتتأمل، ولتبحث عما يمكن أن تضيفه من القول، وحتى لا تنسى شيئا مما تزودت به من مكنونات.. وتنشط أحيانا أيضا، كأنه قد أجابها، كأنه نصحها بفعل شيء لا تريد القيام به، وهي تدافع عن ذلك بالحجج.

وابتعدت، بلا ضجيج، كما جئت، ودخلت لأتعشى.. وفي المساء طلبتُ حضورها، فرأيتها تدخل في هيئة انشغال لم يكن يبدو عليها في العادة. قلت لها وأنا أشير إلى مكانها بجانبي على الأريكة:

- اجلسي هنا..

فجلستْ. وحين ملت نحوها لأقبِّلها، أبعدتْ رأسها بقوة، فاندهشتُ، وسألتها:

- إيه.. ماذا جرى؟

- إنه رمضان، قالت.

فرحت أضحك وقلت:

- ومنعك الولي من أن تتركي من يقبلك في رمضان؟

- أي، نعم، إنني عربية وأنت رومي.

- أيكون إثما كبيرا؟

- أي، نعم.

- إذن، فأنتِ لم تأكلي شيئا طول النهار، حتى غروب الشمس؟

– نعم، لاشيء.

– لكنكِ عند غروب الشمس أكلتِ؟

– نعم.

– إذن، وبما أننا في الليل، فلمَ تتشددين مع بقية الأشياء أكثر من تشددك مع الفم.

فبدت منقبضة، متكدِّرة، مجروحة، واستأنفَتْ في كبرياء لم أعهده فيها:

– إذا تركتْ فتاةٌ عربية روميا يلمسها في رمضان فإنها ستُلعن إلى الأبد.

– وهل سيدوم هذا طوال الشهر؟

وردَّت في يقين كامل: نعم، طوال شهر رمضان.

واتخذتُ لي مظهرا غاضبا، وقلتُ لها:

– إذن، تستطيعين أن تذهبي عند أسرتك لقضاء رمضان.

فأخذت يديَّ ووضعتهما على قلبها وقالت:

– أرجوك، لا تكن سيئا، سترى كيف سأكون لطيفة. سنؤدي رمضان معا، ألا تريد؟ سأصونك، سأدلِّلُك، لكن لا تكن سيئا.

ولم أتمالك نفسي من الابتسام لشدة ما كانت مضحكة ومكتئبة، وبعثت بها لتنام عند أهلها.. وبعد حوالي ساعة من ذلك، وفي الوقت الذي كنت أتهيأ فيه للدخول في الفراش، سمعت دقتين خفيفتين على الباب، كانتا خفيفتين إلى درجة أنني كدت أن لا أسمعهما. قلت: "ادخل"، ورأيت علومة تظهر أمامي وهي حاملة أمامها طبقا كبيرا، مملوءا بالحلوى العربية،

وبمكسرات مُسَكَّرة، مقلية وعائمة في المرق، وبتشكيلة كاملة من الحلويات البدوية الغربية.

كانت تضحك، مبدية أسنانها الجميلة، وتردد:

– سنؤدي رمضان معا.

أنت تعرف أن الصوم الذي يبدأ من الفجر وينتهي عند مغيب الشمس، في الوقت الذي تصبح فيه العين لا تميز بين خيط أبيض وخيط أسود، يتبع في كل مساء باحتفالات صغيرة حميمة، حيث يستمر الأكل حتى الصباح، والذي يستنتج منه بالنسبة لـ"الأهالي" الذين لا يدققون كثيرا في هذه الأمور، أن رمضان يعني أن يجعلوا من النهار ليلا، ومن الليل نهارا، إلا أن علومة دفعت مسألة الضمير الدقيقة إلى أبعد من ذلك، فوضعت طبقها بيننا نحن الاثنين على الأريكة، وأخذت بأصابعها الطويلة النحيفة كُوَيرة صغيرة مُبَوْدَرة، ووضعتْها لي في فمي، هامسة:

– إنها طيبة، كُلْ.

وقضمتُ الحلوى الخفيفة التي كانت ممتازة فعلا، وسألتها:

– أأنتِ التي صنعت هذا؟

– نعم، إنني أنا.

– لي أنا؟

– نعم، لك أنت.

– لتجعليني أحتمل رمضان؟

– نعم، فلا تكن سيئا، وسأحمل لك منه كل يوم.

فيا للشهر الرهيب الذي قضيته هنا. كان شهرا مُحلًّى، ناعما، مثيرا للغضب، شهرا للدلال وللإغراءات، ولنوبات الغضب،

وللجهود غير المجدية ضد مقاومة لا تقهر. وحينما جاءت أيام العيد الثلاثة، احتفلت بها بطريقتي الخاصة، وهكذا نسيت رمضان.

مرَّ الصيف، وكان شديد الحرارة. وفي حوالي الأيام الأولى للخريف بدت لي علُّومة منشغلة، ساهمة، وزاهدة في كل شيء. وحين كلَّفتُ من ينادي عليها ذات مساء، لم يعثر عليها في غرفتها. وخطر ببالي أنها تحوم في أنحاء البيت، وأمرت أن يُبحث عنها، غير أنها لم تكن قد عادت إلى البيت. وفتحتُ النافذة وناديت: محمد.

وجاءني صوت الرجل النائم تحت خيمته ليرد علي:

– وِي، موسيي

– أتعرف أين علومة؟

– نُو، موسيي، غير ممكن، هل ضاعت علومة؟

وبعد ثوان، دخل خادمي العربي وهو في غاية البلبلة، إلى درجة أنه لم يستطع أن يسيطر على اضطرابه، وسألني: هل ضاعت علومة؟

– أي نعم، ضاعت علومة.

– غير ممكن.

– ابحث عنها، قلت له.

فبقي واقفا، مفكرا، باحثا، غير فاهم، ثم دخل إلى الغرفة التي كانت ثياب علومة فيها متناثرة في فوضى شرقية، فتفحص مثل شرطي، أو على الأصح: تشمم مثل كلب وتمتم بعدها بصعوبة

شديدة، وفي استسلام: ذهب. لقد ذهب[91] أما أنا فقد كنت أخشى أن يكون قد وقع لها حادث، سقوط، أو انزلاق في عمق منحدر، فوضعت كل رجال الخيام في حالة استنفار، وأمرتهم بالبحث عنها حتى يجدوها.

وبحثوا عنها طوال الليل، وبحثوا عنها في اليوم التالي، وبحثوا عنها طوال الأسبوع، فلم يعثروا على أي اثر يمكن أن يدل على طريقها.

وكنت أنا أعاني، فقد اشتقت إليها، وكان بيتي يبدو لي خاويا، وحياتي موحشة، بالإضافة إلى الأفكار المقلقة التي كانت تخطر ببالي. فقد كنت أخشى أن تكون قد اختُطفت، أو ربما قُتلت، غير أنني حينما كنت دائما أحاول أن أسأل محمد، وأنقل إليه هواجسي، كان يجيبني بلا أي تغيير:

– لا.. ذهبَ.

ثم يضيف الكلمة العربية"غزال"، كأنما يريد أن يعبر عن سرعة جريها، وعن أنها صارت بعيدة.. ومرت ثلاثة أسابيع، وما عاد لي أمل أبدا أن أرى خليلتي العربية، حين دخل علي محمد ذات صباح، وقد أشرق وجهه من الفرحة وقال لي:

– موسيي، علومة، رجع.

فقفزت من السرير وسألته:

– وأين هي؟

– لا يجرؤ على المجيء، هناك، تحت الشجرة.

91) يؤكد الكاتب مرة أخرى هنا أن محمد لا يميز في كلامه بالفرنسية بين المذكر والمؤنث.

وأشار لي بذراعه الممتدة عبر النافذة إلى بقعة باهتة البياض عند أقدام زيتونة.. فنهضت، وخرجت، وعندما اقتربت من تلك الرزمة من الثياب التي كانت تبدو كأنها ملقاة عند جذع الشجرة المعقوف، عرفت فيها العيون الكبيرة السوداء، والنجوم الموشَّمة، والوجه الطويل المتناسق للفتاة المتوحشة التي أغرتني. وفي الوقت الذي كنت أتقدم فيه نحوها، كان غضب ينتابني، ورغبة تتملكني في ضربها، في جعلها تتعذب، في الانتقام منها.

وصحت فيها من بعيد: من أين أتيت؟

ولم تجب، وظلت ساكنة، جامدة، كأنها فقدت الحياة أو كادت، مستسلمة لعنفي، مستعدة لتلقي الضربات. كنت حينها واقفا على مقربة منها، أتأمل باندهاش الأسمال التي كانت تكسوها، وتلك الأثواب الرثة، الحريرية والصوفية الممزقة، القذرة، التي صيَّرها الغبار رمادية. وكرَّرتُ السؤال، ويدي مرفوعة إلى أعلى كأنني أرفعها على كلب:

– من أين أتيت؟

وتمتمت: من هناك.

– من أين؟

– من القبيلة.

– من أية قبيلة؟

– من قبيلتي.

– لماذا كنت قد ذهبت؟

وحين رأت أنني لا أضربها، تجرأت قليلا وأجابت بصوت خفيض:

– كان لابد.. كان لابد.. لم يكن في استطاعتي أن أواصل العيش في البيت.

ورأيت دموعا في عينيها، فلِنتُ لها في الحين، كما يلين الوحش، وانحنيت نحوها، فلمحت محمدا، وأنا أستدير لأجلس، يراقبنا من بعيد. واستأنفت في هدوء شديد:

– أجيبيني، لماذا ذهبت؟

فراحت تحكي لي حينها أنها كانت قبل ذلك بمدة تشعر في قلبها المتعوِّد على الترحال برغبة لا تقاوم في الرجوع تحت الخيام والنوم والجري والتمرغ على الرمل، في التنقل وراء القطعان من سهل إلى سهل، في أن لا تحس أن هناك فوق رأسها، بين نجوم السماء الصفراء ونجوم وجهها الزرقاء، شيئا آخر غير ستار القماش الرقيق المستهلك والمرقَّع، الذي نلمح عبره بقايا من نار حين نستيقظ ليلا.

أفهمتني كل هذا بعبارات ساذجة، وبحرارة وصدق لهجة، بحيث جعلتني أحس إحساسا قويا أنها لم تكن تكذب علي، وجعلتني أشفق عليها، وأسألها:

– ولماذا لم تقولي لي إنك ترغبين في الذهاب لبعض الوقت؟
– لأنك لم تكن لِتَقبل..
– لو قلت لي حينها ووعدتني بالرجوع، لكنت سأقبل..
– لكنك كنتَ لن تصدق.

وحين لاحظتْ أنني ما عدتُ غاضبا، ضحكتْ، وأضافت:

– أترى؟.. لقد انتهى.. لقد ذهبت عند أهلي، وها أنا ذي أعود.. كنت فقط في حاجة إلى أيام قليلة هناك.. يكفيني الآن،

لقد انتهى، لقد فات، لقد شُفيت. لقد عدت، لقد زال عني الداء، إنني جد مسرورة. أنتَ لستَ سيئا[92].

قلت لها: تعالي إلى البيت، فقامت، وأمسكتُ بيدها، يدها الناعمة، بأصابعها الرشيقة فمشت مشية الانتصار والوقار، في مزقها، وتحت رنين حُلَقها، وأساورها، وقلائدها، وصفائحها، مشت نحو مسكني، حيث كان محمد ينتظرنا. وقبل أن ندخل أعدتُ عليها قولي: علومة. في كل مرة تريدين فيها العودة عند أهلك، عليك أن تخبريني، وسوف أسمح لك بذلك.

فسألتْ في ارتياب: أتَعِدُ؟

– نعم، أعِدُ.

– أنا أيضا أعِدُ. عندما يصيبني الداء –ووضعت يديها على جبهتها، في حركة رائعة– سأقول لك."لابد لي أن أذهب هناك"، وستتركني أذهب.

واصطحبتُها إلى غرفتها، متبوعا بمحمد الذي كان يحمل الماء، لأنه لم يكن ممكنا لنا بعدُ أن نُعْلِم زوجة "عبد القادر الهدارة" بعودة سيدتها. ودخلت.. وما إن لمحت مرآة الخزانة حتى تهلل وجهها، وركضت نحوها كما يُركض للقاء الأم. فنظرتْ لنفسها بعض الثواني، وزمَّت شفتيها، ثم قالت للمرآة، بصوت مغضب بعض الشيء:

– انتظري، فلدي ملابس حريرية في الخزانة، سأصير جميلة بعد حين.

وتركتها بمفردها لتبدي دلالها أمام نفسها.

---

92) يريد الكاتب من هذه الجمل المقطعة أن يشير إلى صعوبة التعبير لدى علومة، مثل محمد.

وعادت حياتنا إلى ما كانت عليه من قبل، وعدت أكابد جاذبية هذه البنت الغريبة أكثر فأكثر، جاذبية الجسم الخالصة، التي كنت أحس نحوها في الوقت ذاته بنوع من الاستخفاف الأبوي.

خلال ستة أشهر كان كل شيء يسير على ما يرام، ثم أحسست أنها عادت إلى عصبيتها واضطرابها، مع مسحة من الحزن، فقلت لها ذات يوم:

– أتريدين العودة إلى بيتك؟

– نعم، أريد.

– ألم تتجرأي على قول ذلك لي؟

– لم أتجرأ.

– اذهبي، إنني أسمح لك.

فأخذت يديَّ وقبلتهما، كما كانت تفعل في كل حُمَيَّاء اعترافاتها بالجميل، وفي اليوم التالي كانت قد اختفت.

وعادت، كما عادت في المرة الأولى، بعد مضي ثلاثة أسابيع على وجه التقريب، رثة الثياب كالمعتاد، سوداء من الغبار والشمس، وقد شبعتْ من حياة الترحال، ومن الرمل والحرية..

وخلال عامين عادت إلى ديارها على هذا المنوال، أربع مرات. فكنت أستعيدها في كل مرة، دون غيرة، لأن الغيرة بالنسبة إلي لا يمكن أن تولد إلا من الحب مثل ما نفهمه عندنا. كان من الممكن جدا أن أقتلها بالتأكيد، لو أنني فاجأتها وهي تخونني، غير أنني كنت سأقتلها كما نقتل إلى حد ما، بدافع العنف الخالص، كلما يُظهِر العصيان، وما كنتُ لأحس بتلك العذابات، تلك النار القارضة، ذلك الألم الفظيع، غيرة الشمال.

قلت منذ قليل أنه كان من الممكن أن أقتلها كما يُقتل كلب يُظهر العصيان، وبالفعل فإنني كنت أحبها كما يحب المرء حيوانا نادرا جدا، كلبا أو حصانا يستحيل تعويضه، وقد كانت بهيمة تثير الإعجاب، بهيمة شهوانية، بهيمة للمتعة، لها جسم امرأة.

إنني لا أستطيع أن أشرح لك مدى البعد الشاسع الذي كان يفصل بين روحينا، حتى وإن احتكَّ -ربما- قلبانا ببعضهما بعضا، وهيَّج الواحدُ منهما الآخر أحيانا. لقد كانت كشيء من أشياء بيتي، من حياتي، كعادة جدٍّ رائعةٍ أتمسك بها، ويحبها الرجل الشهواني في ذاتي، الرجل الذي ليس فيه إلا عينان وحواس.

وذات صباح دخل علي محمد بوجه غير معهود، وفي عينيه تلك النظرة العربية القلقة التي تشبه نظرة القط الشزراء في مواجهة كلب، فبادرتُه، وقد لمحت عليه ذلك الوجه: هه؟ ما الأمر؟

– علُّومة.. إنه ذهب.

فرحتُ أضحك.

– ذهبت، إلى أين؟

– ذهب تماما.. موسيي.

– كيف ذهبت تماما؟

– وِي، موسيي.

– إنك مجنون، يا صغيري.

– نُو، موسيي.

– لماذا هكذا ذهبت؟ كيف؟ ألا تشرح؟

بقي بلا حراك، لا يريد الكلام، ثم انفجر فجأة في إحدى انفجارات غضبه العربية، كتلك التي توقفنا في شوارع المدن بين أهوجين، حيث تحل بشكل فجائي محل الصمت والوقار الشرقي أعنفُ الحركات وأشدُّ الصراخ وحشية.. وفهمت وسط صراخه أن علومة قد هربت مع راعي بهائمي.

كان علي أن أهدئ محمد، وأن أحصل منه شيئا فشيئا على التفاصيل. وتطلَّبَ ذلك وقتا طويلا، حيث علمت منه في النهاية أنه كان منذ ثمانية أيام يراقب خليلتي التي كانت تلتقي خلف غابة الصَّبار المجاورة، أو في منحدر الدِّفلَى، مع شبه متشرد كان مدير أعمالي قد شغَّله كراعٍ في الشهر السابق.

في الليلة السابقة رآهما محمد يخرجان دون أن يعودا.. وراح يكرر في غيظ:

– ذهب يا موسيي، إنه ذهب.

لا أدري لماذا ولكن قناعته، قناعة الهروب مع ذلك المتشرد، كانت قد اخترقتني في ثانية بشكل قاطع، وبدون أدنى مقاومة. كان ذلك شيئا عبثا، وغير قابل للتصديق، وشيئا مؤكدا، بناء على اللامنطق الذي هو المنطق الوحيد عند النساء.

كنت أحاول، وأنا مقبوض القلب، فائر الدم، أن أتذكر ملامح ذلك الرجل، وتذكرت فجأة أنني رأيته في الأسبوع الماضي، واقفا فوق مرتفع من الأرض، وسط قطيعه، ينظر إلي.. كان بدويا طويلا، يتداخل لون أعضائه العارية مع لون أطماره، من ذلك النوع الهمجي الفظ، بفوذيه البارزين، وأنفه المعقوف،

وذقنه الهارب، وساقيه الجافَّتين. كان هيكلا مديدا في هلاهل، بعيني ذئب مخادعتين.

لم يكن يساورني أدنى شك، نعم، لقد فرَّت مع ذلك الصعلوك. لماذا؟ لأنها كانت علومة، إحدى بنات الرمل، ولو كانت واحدة أخرى من بائعات الهوى في باريس، لكانت قد فرَّت مع سائس عربتي، أو مع أحد شُذَّاذ الآفاق.

قلت لمحمد: حسن، إن كانت قد ذهبت، فليكن، فهي الخاسرة. إن لدي رسائل سأكتبها.. دعني وحيدا.

وانصرف، وقد أدهشه هدوئي. أما أنا فقد قمت من مكاني، وفتحت النافذة، ورحت أستنشق بعمق هواء الجنوب الخانق الذي كان يتغلغل إلى أعماق صدري، إذ أن ريح "السيروكو" هو الذي كان يهب.. ثم خطر ببالي: يا إلهي، إنها.. إنها امرأة، كغيرها من النساء الكثيرات. ألا نعرف.. ألا نعرف ما يدفعهن إلى مسلك معين، وما يجعلهن يحببن، أو يتبعن أو يتركن رجلا؟ بلى، إننا نعرف أحيانا، وغالبا ما لا نعرف، ويداخلنا الشك في بعض الحالات.

لماذا اختفت مع هذا الهمجي المقرف؟ لماذا؟ ربما لأن الريح تهب منذ شهر من الجنوب بشكل منتظم تقريبا. إن هذا كاف: هبة ريح.. فهل تدري؟ هل يدرين؟ لماذا يتصرفن مثل هذا التصرف، وفي معظم الأحيان، سواء في ذلك ذوات السلوك المهذب أو الأكثر تعقيدا؟ ليست سوى دوَّارة تدور في الريح، تؤثر عليها أدنى نسمة، فتدير السهم الحديدي، أو النحاسي، أو القصديري، أو الخشبي، كذلك قلب النساء المتقلب، الذي تؤثر

عليه أدنى المؤثـرات، وأقـل الانطباعات، وتدفع بـه إلى اتخـاذ الحلـول، يتسـاوى في ذلـك نسـاء المـدينة، أو الحقـول، أو الضواحي، أو الصحراء.

قد يشعرن فيما بعد، إذا كنَّ يفكرن ويفهمن، لماذا تصرَّفن هذا التصرف وليس ذاك، غير أنهن حين يتصرفن يكنَّ جاهلات لذلك، لأنهن لسن سوى لُعبٍ لإحساسهن ذي المفاجآت، وإماءٍ غائبات الوعي بالأحداث، والأوساط، والعواطف، واللقاءات، ولكل اللمسات التي تدغدغ أرواحهن وأجسادهن.

وهـبَّ السيد "أوبـال" واقفا، وخـطا خطـوات، ثم نظر إلي وقـال مبتسما:

– هاهو ذا حب في الصحراء.

وسألته: وماذا لو تعود؟

فهمهمَ: القَذِرة.. ذلك سيسرني، على أية حال.

– وستعفو على الراعي؟

– يـا إلـهي، نعـم، فمـع النسـاء لابد لـك دائـما أن تـعفـو، أو تتجـاهل.

– المرادية يوم الأربعاء 1950/06/18.

ذات مساء في بجاية *

غي دي موباسان

Guy de Maupassant

Un soir

كان المركب "كليبير" قد توقف، في الوقت الذي كنت أتأمل فيه بعيني المبهورتين خليج بجاية الساحر، الذي انبلج أمامنا. كانت غابات القبائل تغطي الجبال العالية، والرمال الصفراء تبدو من بعيد كأنها تصنع للبحر شاطئا من التربة الذهبية، والشمس تصب سيولا من النار على البيوت البيضاء للمدينة الصغيرة.

وكان النسيم الساخن، نسيم إفريقيا يحمل إلى قلبي الجذل رائحة الصحراء، رائحة القارة الكبيرة المليئة بالأسرار، حيث لم يتوغل فيها رجل الشمال بعد أبدا. مر علي ثلاثة أشهر وأنا هائم على حافة هذا العالم العجيب والمجهول، على شاطئ هذه الأرض المدهشة، أرض النعام، والجمل، والغزال، وفرس النهر، والغوريلا، والفيل، والزنج. وكنت قد شاهدت العربي في الصحراء من قبل يركض بحصانه في الريح ويمرّ مثل بيرق يرفرف ويطير، ونمت تحت الخيمة السمراء المتشردة لتلك الطيور البيضاء الصحراوية.. كنت ثملا بالضوء والفروسية والفضاء الشاسع.

* من مجموعة "اليد اليسرى" :La main gauche.

أما الآن، وبعد هذه النزهة الأخيرة فإنه يتوجب علي أن أغادر، لأعود إلى فرنسا وإلى ورؤية باريس من جديد، مدينة الثرثرة الفارغة، والهموم التافهة، والشلل التي لا حصر لها، وعليّ أن أقول وداعا للأشياء التي أحببتها، رغم حداثة عهدي بها، ولمّا أكد أملأ العين منها، وسأتأسف كثيرا عليها.

أحاط بالمركب أسطول من الزوارق، فقفزت في واحد منها كان يجدِّف به فتى فاحم البشرة، ووجدت نفسي بعد هنيهة على الرصيف، على مقربة من الباب القديم للمدينة، الذي كان الأثر الرمادي الباقي منه عند مدخل المدينة القبائلية، يشبه ميسم نبالة من عهد قديم.

وبينما كنت واقفا على رصيف الميناء بجانب حقيبتي، أنظر إلى المركب الكبير الراسي بالميناء، مبهورا أمام هذا الشاطئ الفريد، وهذا المدرج من الجبال العائمة في الأمواج الزرقاء، الأجمل من شاطئ نابولي، ومن شاطئ أجاكسيو بورتو في كوريسكا، فإذا بيد ثقيلة تسقط على كتفي.. والتفت فرأيت رجلا طويلا بلحية مسترسلة، يضع على رأسه قبعة من القش، مرتديا لباسا من الصوف الخفيف الأبيض، واقفا إلى جانبي، محدقا في بعينيه الزرقاوين، ليبادرني: ألم تكن رفيقي القديم بالقسم الداخلي في الثانوية؟

– هذا ممكن.. ما اسمك؟

– تريمولان

– بحق السماء! لقد كنت جاري في الدراسة.

– أما أنا فقد عرفتك، يا صديقي، منذ الوهلة الأولى.

واحتكت لحيته الطويلة بخدي وهو يقبلني.. وبدا مسرورا ومنشرحا وسعيدا برؤيتي، مما جعلني أشد بحميمية وحرارة على يدي رفيق الأمس هذا.. وشعرت أنا أيضا بسعادة غامرة للقائي به مرة أخرى.

لقد كان تريمولان طيلة أربع سنوات الصديق الأقرب مني، والأفضل من بين رفقاء الدراسة، الذين سرعان ما ننساهم عادة بمجرد ما نغادر الثانوية.كان حينذاك ذا جسم طويل ونحيل، بحيث يبدو كأنه يحمل رأسا مفرط الثقل، رأسا ضخما مستديرا، يميل برقبته، لثقله، نحو اليمين تارة، ونحو الشمال تارة أخرى، ويسحق الصدر الضيق لذلك التلميذ ذي الأرجل الطويلة.

كان تريمولان ذكيا جدا، وموهوبا بشكل خارق، وصاحب عقل سهل الاستيعاب، وله ما يشبه الاستعداد الفطري في كل الدراسات الأدبية، مما جعله أكبر حاصد للجوائز في قسمنا.وكان الجميع في الثانوية مقتنعا أنه سيصبح رجلا مشهورا، شاعرا دون شك، لأنه كان ينظم أبياتا شعرية، وله أفكار في غاية البراعة من الناحية العاطفية.

والده، الذي كان صيدليا بحي "البانتيون" لم يكن يعد من الأثرياء.

بعد البكالوريا مباشرة، انقطعت علاقتي به.

سألته: ماذا تفعل هنا؟..

فردّ علي مبتسما: أنا مستوطن.

– أنت تزرع؟

– وأجني أيضا.

– تجني ماذا؟

– العنب، الذي أعصر منه الخمر.

– هل الأمور على ما يرام؟

– جدا.. جدا.

– هنيئا..يا صديقي.

– أكنت ذاهبا إلى الفندق؟

– بطبيعة الحال؟

– في هذه الحال، ستذهب إلى بيتي.

– لكن...

– اتفقنا..

وقال للزنجي القميء الذي كان يتابع حركاتنا.

– إلى بيتي، يا علّي.

وأجاب علي: فوي موسي[93] ثم راح يعدو وحقيبتي على كتفه، ورجلاه السوداوان تثيران الغبار.

وأمسك تريمولان بذراعي وأخذني معه. وسألني في البداية عن رحلتي، وعن انطباعاتي. وبدا، وهو يرى حماسي، أنه أحبني أكثر.

كان سكنه بيتا موريسكيا قديما، بفناء داخلي، وبلا نوافذ تطل على الشارع، يعلوه سقف مسطح، ويعلو بدوره سطوح المنازل المجاورة، والخليج والغابات والجبال والبحر.

93) أي: نعم، سيدي. ويريد الكاتب أن يؤكد على النطق المحرف للخادم، مثل ما رأينا في القصة السابقة.

وصحت: آه، هذا ما يعجبني، المشرق كله يدخل قلبي في هذا البيت. ما أسعدك بالعيش هنا. أي نوع من الليالي التي تكون بتَّ فيها على هذا السطح! هل تنام فيه؟

- بلى، فأنا أنام فيه في الصيف، وسنصعد إليه هذه الليلة.. أتحب الصيّد؟

- أي صيد ؟

- الصيد في البحر على ضوء المشاعل.

- طبعا، أحبه كثيرا.

- حسنا، سنذهب للصيد بعد العشاء، ثم نعود لنتناول الشراب على سطح منزلي.

بعد أن أخذت حماما، تجوَّل بي في المدينة القبائلية الرّائعة، وهي عبارة عن شلال حقيقي من المنازل البيضاء ينحدر إلى البحر، ثم عدنا حين حل المساء. وبعد عشاء فاخر، نزلنا باتجاه رصيف الميناء.

لم نكن نرى سوى أضواء الشوارع والنجوم، تلك النجوم الواسعة، اللامعة، المتلألئة في سماء إفريقية.. في ركن من الميناء، كان هناك زورق ينتظرنا، وبمجرد أن ركبناه، راح رجل، لم استطع أن أتبين وجهه، يجدِّف، في الوقت الذي كان فيه صديقي يهيئ موقد الجمر الذي سيوقده بعد حين.

- أتعرف.. أنا من سيستعمل الحربة.. لا أحد يجاريني في استعمالها.

- تهاني لك.

التففنا حول ما يشبه السور، وأصبحنا حينها في جون صغير مملوء بصخور مرتفعة، كانت ظلالها تشبه أبراجا مبنية في الماء،

وتبيَّن لي فجأة أن البحر كان فسفوري اللون. وكانت المجاديف التي راحت تضرب البحر ببطء ضربات منتظمة، تشعل فيه عند كلّ سقوط لها وميضا متحركا وغريبا، يتبعنا لينطفئ بعيدا خلفنا.

كنت أتطلع، وأنا منحنٍ، إلى هذا السيل من الضياء الشاحب، الذي كانت تفتّتُه المجاديف، وهذه النّار البحرية التي لا يمكن التعبير عنها، هذه النّار الباردة التي تشعلها حركة المجداف وتموت بمجرد أن يهدأ الموج.. وكنّا ثلاثتنا نمضي منزلقين في الظّلام على هذا الوميض.

أين كنّا ماضين؟ لم أعد أرى جيرتي تماما.. لم أعد أرى إلا تلك الحركات المضيئة، وشرارات الماء التي تقذفها المجاديف، كان الجوّ حارا، حارا جدا، بحيث يبدو الظلام كأنه سُخِّن في فُرن. وكان قلبي مضطربا من هذه الرحلة الغامضة، مع هذين الرجلين في هذا الزورق الصامت.

وكانت الكلاب العربية النحلية، ذات الشعر الأحمر، والخطم الحاد، والأعين اللاّمعة تنبح في البعيد، مثل ما تنبح كلّ ليلة على هذه الأرض ذات التضاريس غير المنتظمة، من ضفاف البحر إلى عمق الصحراء، حيث تخيّم القبائل الرّحالة، فترد عليها الثعالب، والذئاب، والضباع، ومما لا شك فيه أن هناك، غير بعيد من هنا، أسدٌ ما، معزول، يزمجر الآن في أحد مضايق الأطلس.

فجأة توقف المجدف عن التجديف.. أين كنّا؟ وسمعت صرير ضجيج صغير بالقرب منّي، وأُشعِل عود كبريت، ورأيت يدا،

لاشيء سوى يد تحمل هذه الشعلة الخفيفة نحو المشبك الحديدي المعلق في مقدمة الزورق والمحمّل بالحطب مثل محرقة عائمة.

رحت أنظر مندهشا، كما لو كان هذا المشهد مثيرا وجديدا عليّ، وتابعت الشعلة الصغيرة بتأثر وهي تلامس حافة ذلك الموقد بقبضة من الخلنج اليابس الذي راح يحدث طقطقة وهو يحترق. وحينئذ، وفي ذلك اللّيل النائم، ذلك اللّيل الثقيل الملتهب انبجست نار كبيرة، فأضاءت، تحت قبة من الظلام الكثيف، الزورق ورجلين، وبحارا مسنا، نحيلا، أبيض وذا تجاعيد، يعقد على رأسه منديلا، وتريمولان الذي كانت لحيته الشقراء تلمع.

- إلى الأمام، قال..

وأخذ الآخر يجدّف، سائرا بنا من جديد وسط شهاب، تحت قبة متحركة من الظلام كانت تتجول معنا. وكان تريمولان يرمي الحطب بحركة متواصلة على الموقد الذي كان يلتهب متوهجا ومحمرا.

وانحنيت من جديد، فبدا لي قاع البحر، وعالم البحر الغريب، على بضعة أقدام تحت المركب، ينبسط ببطء أثناء ما كنّا نمر، عالم الماء العجيب، الماء الذي يحيي مثل هواء السماء نباتات ودواب.

كان الموقد يتغلغل إلى أن يصل الصخور بضوئه القويّ، وكنّا ننزلق فوق غابات مدهشة من أعشاب ضاربة إلى الأحمر، ووردية، وخضراء، وصفراء، وكان بيننا وبينها مرآة رائعة الشفافية، مرآة ذائبة لا ترى تقريبا، تجعلها سحرية، وتدفع بها

في حلم إلى الخلف، في الحل الذي يوقظ المحيطات العميقة. هذه الموجة الصافية، التي هي من الشفافية بحيث تجعلنا لا نتبيّنها، وإنما نخمّن وجودها، وتضع بين تلك النباتات العجيبة وبيننا شيئا محيِّرا، مثل الشك في الواقع، وتجعلها غامضة مثل مشاهد الأحلام.

في بعض الأحيان كانت هذه الأعشاب تصعد حتى تبلغ سطح الماء، وتتخذ شكل خصلات الشعر، ولا تكاد تتحرك إلا قليلا بسبب المرور البطيء للمركب. وبداخلها كانت هناك أسماك فضية صغيرة، تفر مسرعة بمجرّد أن تظهر في ثانية واحدة، وأخرى ماتزال نائمة، تطفو معلّقة وسط تلك الأدغال المائية لامعة ولدنة لا يمكن الإمساك بها. وفي بعض الأحيان كان يظهر سرطان مسرعا نحو ثقب ليختبئ فيه، أو حرّيقة ضاربة إلى الزرقة، وشفافة لا تكاد ترى، مثل زهرة بحرية شاحبة اللون، مثل زهرة حقيقية، تترك جسمها المائع يسحب بواسطة الحركة الخفيفة التي يحدثها زورقنا. وفجأة يختفي القاع ويسقط نحو الأسفل البعيد جدا في ضباب زجاجي سميك، وأصبحنا حينئذ لا نرى إلاّ صخورا ضخمة وطحالب داكنة بشكل باهت، حيث لم تعد تظهر في ضوء الموقد إلاّ قليلاً.

كان تريمولان واقفا في الأمام، وجسمه محنى ماسكا بين يديه الحربة الطويلة ذات الأسنّة الحادّة، التّي يسمونها الخطّاف، يراقب الصخور والأعشاب وقاع البحر المتغيّر بعين حادّة لحيوان يصطاد.

فجأة ترك رأس سلاحه المتشعب ينزلق في الماء بحركة حيوية ولطيفة، ثم رماه بعد ذلك كما يرمى نبل، وبسرعة فائقة،

حيث أصاب سمكة كبيرة كانت تنطلق فارّة من أمامنا. لم أر شيئا إلاّ حركة تريمولان، ولكنني سمعته يزمجر من الفرح، وعندما رفع خطافه تحت ضوء الموقد، رأيت بهيمة تتلوى، وقد اخترقت جسمها الأسنان الحديدية، كانت إحدى أسماك عنكليس البحر. وبعدما تأمّلها وأراني إيّاها، ممررا إياها في ضوء الشعلة، رماها في قاع الزورق، وراح ثعبان البحر الذي كان جسمه مثقوبا بخمسة جروح ينزلق ويزحف قريبا من قدمي، باحثا عن ثقب يختبئ فيه، وعندما وجد بركة ماء آسن ركن فيها والتوى ميتا تقريبا.

دقيقة بعد دقيقة، راح تريمولان يجمع ببراعة فائقة، وبسرعة مذهلة، وبثقة معجزة، كلّ الكائنات العجيبة للماء المالح التي رأيتها تمرّ بتناوب فوق النّار مع تشنجات الاحتضار: ذئاب بحرية فضيّة، وسمك "الميران" الدّاكن الملطّخ بالدّم، و"الراسكا" الشائك، والحبّار، وهي هوام غريبة كانت تبصق الحبر وتجعل البحر أسود لبعض الوقت حول المركب، وكان يخيّل إليّ باستمرار أثناء هذا الوقت أنني أسمع صيحات الطيّور في الليل من حولنا، ورفعت رأسي مجهدا نفسي لأرى من أين يأتي هذا الصفير الحاد، أمن قريب أو بعيد؟ أقصير أو ممتد؟ كان بلا عدّ لا يتوقف، كما لو أن سحابة من الأجنحة كانت تحوم فوقنا، جذبتها النّار، لاشك، كان ذلك الضجيج يخدع الأذن أحيانا، ويبدو وكأنه يخرج من الماء. سألت:

– ما الذي يصفّر هكذا؟

– إنه الفحم المتساقط.

وبالفعل فقد كان الموقد يزرع فوق البحر مطرا من الزخات الملتهبة، كانت تسقط حمراء أو مشتعلة، وتنطفئ بأنين لطيف، متوغلة، غريبة، محدثة أحيانا زقزقة عصافير حقيقية، وأحيانا نداءًا قصيرًا لمهاجر مارٍّ، إنها قطرات من الراتنج تقصف كرصاصات أو كالدبابير، وتموت فجأة وهي تغطس في الماء.

كان يمكن أن نقول عليها إنها أصوات كائنات، حقا إشاعة حياة غير قابلة للوصف، هزيلة وتائهة في الظّلام بالقرب منّا، وصرخ تريمولان فجأة:

– آه الحقيرة.

ورمى بخطافه، وعندما رفعه، رأيت حول أسنان الحربة، الملتصقة بالحطب، ما يشبه خرقة لحم كبيرة حمراء، كانت ترتعش وتتحرك تلتف وتنبسط حول مقبض الحربة، قدّة طويلة، رخوة، وقوية مغطّاة بمصاصات. لقد كانت أخطبوط.

قرّب مني هذه الفريسة، فرأيت العينين الكبيرتين لهذا الوحش، اللتين كانتا تنظران إليّ، كانت عينين بارزتين مضطربتين ومرعبتين، خارجتين من جيب يشبه الورم.

وظنّا منه أنّه كان حرا فقد مدّ الحيوان أحد أعضائه، حيث رأيت مهاجمه البيضاء تزحف نحوي. وكان طرفه رقيقا مثل الخيط، وعندما تعلقت هذه الرّجل المفترسة بالمقعد، قامت أخرى تتبعها، فأحسسنا أن بداخل جسمها الكثير العضلات والطّري، داخل هذه المهاجم الرخوة الحيّة المحمرة، قوة لا تقاوم. وكان تريمولان قد فتح سكينه، وبضربة مفاجئة أدخله بين العينين، وسمعنا تنهدًا، كان صوت الهواء الذي كان يتسرب، وتوقف الأخطبوط عن التقدّم.

لم يكن ميتا بعد، لأن الحياة شديدة الثبات داخل هذه الأجسام العصبية، ولكن قوّته تحطمت، وانشقت مضختته، ولم يعد بإمكانه شرب دّم السرطانات، ولا امتصاصها، ولا تفريغ قوقعتها. ونزع تريمولان المصاّصّات من اللوح، كما لو أنه يريد اللعب مع هذا المحتضر، وفجأة داهمه غضب غريب، وصاح:

– انتظر، سأسخن رجليك.

وبضربة من الحربة أخذه من جديد، ورفعه، ومرّر الرؤوس الرقيقة من اللحم لأعضاء الأخطبوط على النّار، وحكّ مع الشبابيك الحديدية المحمرة للموقد الرؤوس الدقيقة من لحم أعضاء الأخطبوط، وأزت أعضاؤه وهي تتلوى، واحمرت، وانكمشت بتأثير النّار، وأحسست بألم يعبر جسدي ليصل إلى أطراف أصابعي، وصحت:

– لا.. لا تفعل ذلك.

فأجاب بكل هدوء:

– آ! هذا أحسن له.

بعد ذلك رمى من جديد في قعر الزورق بالأخطبوط المنهك، والمشوّه، الذي زحف بين رجليّ حتى غاية الثقب المملوء بالماء الآسن، حيث تكوّر ليموت وسط الأسماك الميتة[94].. واستمر الصيّد مدة طويلة حتى نفد الحطب.

وعندما لم يبق منه ما يكفي للمحافظة على النّار رمى تريمولان الموقد بأكمله في الماء، وحينها عاد الليل الذي كان معلقا فوق رؤوسنا بفعل ألسنة اللهب المضاء، ليلفنا من جديد في سرابيله.

---

94) لكي نفهم سلوك تريمولان وسر تعذيبه لهذا الحيوان البحري ينبغي أن نلاحظ أن اسم الأخطبوط في الفرنسية مؤنث، وبسبب خيانة زوجته له –كما سيرويها لصديقه بعد قليل–.أصبح سلوكه عدوانيا ضد كل أنثى، ونوعا من الانتقام من جنس الأنثى حتى ولو كانت حيوانا.

راح العجوز يقدِّف بحركات منتظمة.. أين الميناء؟ أين اليابسة؟ أين هو مدخل الخليج والبحر الواسع؟ لم أكن أعرف شيئا وكان الأخطبوط ما يزال يتحرك بعد بالقرب من قدمي، وكنت أتألم من أظافري كما لو كانت أحرقت هي أيضا، وفجأة لمحت أضواء، لقد كنّا ندخل الميناء وسألني صديقي:

– هل أنت نعسان؟

– لا، أبدا.

– إذن، سنتحدث قليلا على سطح البيت.

– أجل، بكلّ سرور.

في اللحظة التي وصلنا فيها إلى ذلك السطح، لمحت الهلال الذي كان طالعا وراء الجبال، وكانت الريح الساخنة تتسرب في هبّات بسيطة مليئة بروائح لطيفة لا تكاد تحس بها تقريبا، كأنها كانت تكنس في طريقها عطر الحدائق ومدن جميع البلدان المحروقة بالشمس.

حولنا كانت المنازل البيضاء ذات السقوف المربعة تنزل باتجاه البحر، وفوق سطوحها كنّا نرى هيئات بشرية نائمة أو قائمة، تنام أو تحلم تحت النّجوم، كانت هناك أسر بأكملها ملتفة في أثواب طويلة فضفاضة تستريح في اللّيل من قيظ النّهار.

وبدا لي فجأة كأن الروح الشرقية تتسلل إلى داخلي، الروح الشاعرية والأسطورية للشعوب البسيطة، ذات الأفكار الزاهرة. كان قلبي مفعما بالتوراة، وألف ليلة وليلة، وكنت أسمع الأنبياء يعلنون عن معجزاتهم، وكنت أرى فوق سطوح القصور

أميرات يمررن وهنّ لابسات سراويل من حرير، في الوقت الذي كانت فيه أنواع من البخور اللّطيف تحترق في مواقد من الفضة، وتنشر دخّانا يأخذ أشكال الجنّ.

قلت لتريمولان: أنت محظوظ بالعيش هنا.

فقال: إنّها المصادفة التي ساقتني هنا.

– المصادفة؟

– نعم، إنّها المصادفة وسوء الحظّ.

– كنت سيء الحظ؟

– سيء الحظ جدّا.

كان واقفا قدامي ملتفا في برنسه. وأحدثت نبرة صوته قشعريرة في بدني بسبب ما بدا لي فيها من ألم.

وواصل بعد لحظة صمت: أستطيع أن أحكي لك همي.. إنّ الحديث عنه يريحني.

– أحك.

– أتريد ذلك؟

– أجل.

– حسنا.. إنّك تذكر جيدا ماذا كنت عليه في الثانوية: كانت لي هيئة شاعر نشأ في صيدلية. كنت أحلم بتأليف الكتب، وقد حاولت ذلك بعد أن حصلت على البكالوريا، غير أنني أخفقت. نشرت ديوانا شعريا، ثم رواية، دون أن يلقى رواجا، لا هذا ولا تلك، ثم كتبت مسرحية ولم تعرض. وفي تلك الأيام وقعت في الحبّ. لن أقصّ عليك حكاية غرامي. كان إلى جانب

دكّان والدي خيّاط، وكان له بنت وقعت في حبّها، كانت ذكيّة، وهو ما مكنها من الحصول على دبلومات في التعليم العالي. وكانت تتمتع بحضور ذهني قوي رشيق، ينسجم تماما مع شخصها. كان الناظر إليها يقدر أنها في سن الخامسة عشر، في حين كانت سنّها تفوق الثانية والعشرين، كانت امرأة قصيرة، رقيقة الملامح والهيئة، كل ما فيها –صوتها، أنفها، فمها، عيناها الزرقاوان، شعرها الأشقر، ابتسامتها، قامتها، يداها– كان يبدو وكأنه صنع ليوضع في واجهة دكّان، لا للحياة في الهواء الطلق، ومع ذلك فقد كانت حيويّة، رشيقة، نشيطة إلى حدّ لا يصدق. كنت مغرما بها أشد الغرام، وأتذكر تنزهي معها مرتين أو ثلاث في حديقة "اللوكسمبور"[95] أمام ينبوع "ميديسيس"، وهي الأوقات التي ستظل أجمل ساعات حياتي.

أتعرف؟ لاشك.. تلك الحالة الغريبة من الجنون اللطيف الذي يجعلنا لا نفكر إلاّ في القيام بأعمال العبادة حيث نصبح معها مسكونين حقا بهاجس امرأة، ولا وجود لأي شيء إلى جانبها؟ كنّا على وشك إعلان خطوبتنا، وكنت أعلمها بمشاريعي في المستقبل التي لم تكن تعجبها. لم تكن تصدق أنّي شاعر، ولا روائي، ولا كاتب مسرحيات، وترى أن التجارة إذا ازدهرت يمكنها أن تعطي السعادة الكاملة. وعليه فقد تخليت عن تأليف الكتب، واكتفيت ببيعها، واشتريت "مكتبة العالم" في مرسيليا، التي كان صاحبها قد توفي.

وقضيت هناك ثلاث سنوات جميلة، جعلنا فيها محلنا شبه صالون أدبي، حيث كان كلّ أدباء المدينة يأتون لتبادل الأحاديث

95) قصر ومعه وحديقة عمومية مشهورة في قلب باريس.

فيه، فكنّا ندخل إلى مكتبتنا كما لو كنا ندخل إلى نادٍ أدبي، فنتبادل الأفكار حول الكتب، وحول الشعراء، وحول السياسة بشكل خاص. وكانت زوجتي، التي كانت تسيّر المكتبة، تتمتع بمكانة اجتماعية حقيقية في المدينة، أمّا أنا، ففي الوقت الذي كانت الأحاديث تدور في الطابق الأرضي، كنت أنا أعمل في مكتبي بالطابق الأول الذي يتصل بالمكتبة بواسطة سلم متعرج، فكنت أسمع الأصوات، والضحكات، والمناقشات، وكنت أحيانا أتوقف عن الكتابة لأسمع، وكنت حينها قد شرعت في كتابة رواية أبقيتها سرا ولم أتممها.

كان أكثر المواظبين على الحضور السيّد "مونتينا"، وهو صاحب إيراد قار. كان شابا طويلا، وسيما، من شباب الجنوب، ذا شعر أسود، وعينين متملقتين. وكان من المواظبين أيضا السيّد "باربي"، وهو قاض، بالإضافة إلى تاجرين هما السيدان: "فوسيل" و"لاباريك"، وكذا "الجنرال الماركيز دو فليش" زعيم الحزب الملكي، وأكبر شخصيات المنطقة وجاهة، وهو شيخ في السادسة والستين من عمره.

كانت الأمور تسير على ما يرام، وكنت سعيدا، سعيدا جدا.. وذات يوم، في حوالي الساعة الثالثة، بينما كنت اشتري بعض حاجياتي، مررت بشارع "سان فيريول"، فشاهدت فجأة امرأة تخرج من إحدى الأبواب، هيئتها تشبه إلى حد كبير هيئة زوجتي، حتى كدت أقول: "إنها هي!" لولا أنني كنت قد تركتها منذ أكثر من ساعة في الدكان وهي تشكو من صداع ألم بها. كانت تمشي أمامي بخطوات سريعة، ودون أن تلتفت. ورحت أتبعها رغما عنّي تقريبا، وأنا مندهش، وقلق.

كنت أقول لنفسي: "لا، إنها ليست هي. هذا مستحيل، من حيث أنني تركتها تعاني من الصداع، ثم ما عسى أن تكون قد جاءت لفعله في ذلك البيت؟" كنت حينها أرغب في أن أعرف الحقيقة، وأسرعت في اللحاق بها. والتفتتْ فجأة فتبين لي أنها هي. أتكون قد أحست بي، أو خمنتْ وجودي، أو عرفتني من خطواتي؟ لا أدري. واحمر وجهها كثيرا عندما رأتني، وتوقفت لتقول لي مبتسمة:

– آه! ها أنت ذا..

وكان قلبي مقبوضا.

– بلى.. لقد خرجت إذن؟ وصداعك؟

– لقد تحسنت، فخرجت للقيام بمهمة.

– وأين ذلك؟

– عند "لاكوساد" في شارع "كاسينيلي"، لأطلب أقلاما.

كانت تنظر إليّ، مواجهة لي تماما. لم تعد محمرة الوجه، ولكن كانت على الأصح شاحبة، وكانت عيناها الصافيتان ـ آه! من عيون النساء! ـ تبدوان مليئتين بالصدق، ولكنني أحسست على نحو غامض، وبألم، أنهما كانتا مليئتين بالكذب. وبقيت واقفا أمامها مشوش الخاطر وأشد منها ارتباكا وانقباضا، دون أن أجرأ على الشك في شيء، ولكني كنت متأكدا أنها كذبت علي. لماذا؟ لم أعرف أي شيء! واكتفيت بالقول:

– حسنا فعلت بخروجك إذا ما كان صداعك قد تحسن.

– بلى. أحسن بكثير.

– أأنت عائدة؟

– أجل.

وتركتها وذهبت وحدي عبر الشوارع. ماذا حدث؟ عندما كنت وجها لوجه معها كان لدي إحساس بأنها غير صادقة، أما الآن فلم أعد قادرا على تصديق ظنوني، وعندما عدت للعشاء رحت أتهم نفسي أني شككت في صدقها ولو للحظة واحدة.

هل كنت غيورا؟ نعم أو لا، هذا لا يهم! فقد سقطت أوّل قطرة غيرة على قلبي، وهي قطرات من نار. ولم أفترض أيّ شيء، ولم أصدق أي شيء، ولكني فقط كنت على يقين أنها كذبت علي.

حينما كنّا نبقى وحيدين في المساء، بعد ذهاب الزبائن والعمال، كنا نذهب للتجوّل حتى الميناء، عندما يكون الجوّ جميلا، أو نبقى نتحدث في مكتبتي إذا كان الجوّ ممطرا. كنت أفتح قلبي أمامها على آخره ودون تحفظ، لأنني كنت أحبّها. كانت جزء من حياتي، الجزء الأكبر، وكانت كل سعادتي، كانت تحمل بين يديها روحي المسكينة، المفتوحة، المطمئنة والمخلصة.

خلال الأيام الأولى، تلك الأيام الأولى للشك والقلق، وقبل أن يتحدد الشك ويكبر، كنت أحس أنني منهزم وبارد كما لو أن مرضا ما يفرخ في جسدنا. كنت أعاني من البرد دون انقطاع، من برد حقيقي. لم أعد آكل، ولم أعد أنام.

لماذا كذبت علي؟ وماذا كانت تفعل في ذلك البيت؟ لقد دخلت إليه بغرض أن أكتشف فيه شيئا ما، ولكنني لم أجد شيئا، وكان مستأجر الطابق الأول، وهو بائع سجاد قد أعطاني معلومات عن كلّ جيرانه، دون أن يفضي ذلك بي إلى أي طريق.

لقد كانت تسكن بالطابق الثاني قابلة، وفي الثالث خيّاطة وصاحبة محل تجميل، وفي الطابق الأخير سائسان يقيمان مع عائلتيهما.

لماذا كذبت؟ كان من السهل عليها أن تقول لي إنّها أتت من عند الخيّاطة، أو من عند صاحبة محل التجميل، وكم كانت رغبتي شديدة في أن أسألهما هما أيضا، ولكنني لم أفعل خشية أن يخبراها وتعلم بشكوكي.

إذن لقد دخلت هذا المنزل وأخفت عنّي الأمر، وكان هناك سر، فما هو؟ كنت أحيانا أتخيّل أسبابا تستحق الإشادة بها، مثل عمل جيد تخفيه، أو معلومة تبحث عنها، فألوم نفسي على الشك فيها، أليس من حق كل واحد أن يكون له أسراره الصغيرة البريئة؟ نوع من الحياة الداخلية الثانية التي لا يحق لأحد أن يحشر نفسه فيها، أيحق لرجل أن يطلب من فتاة أعطيت له لكي تكون رفيقة عمره أن لا تفكر أو تقوم بفعل أي شيء دون أن تعلمه مسبقا أو بعد أن تقوم به؟ هل تعني كلمة زواج التنازل عن أية استقلالية وأية حرية؟ ألا يمكن أن تكون قد ذهبت عند إحدى المرأتين: الخياطة أو صاحبة محل التجميل دون أن تعلمني، أو أنها ذهبت لإسعاف عائلة أحد السائسين؟ ألا يمكن أيضا أن تكون زيارتها لهذا المنزل سرا ذات طبيعة بريئة، خشية أن تتعرض، ليس لتوبيخي، ولكن لانتقادي؟ إنها تعرفني حتى في بعض عاداتي المزاجية المجهولة جدا، وخشيت ربما من عتابي لها، أو على الأقل من مناقشتي لها. وكانت يداها جدّ جميلتين، وقد انتهي بي التفكير إلى افتراض أنها كانت تعالجها خفية عنّي

عند صاحبة محل التجميل في المنزل المشبوه، ولم تعترف بذلك حتى لا تبدو مبذرة، لأنها كانت امرأة ذات ترتيب، ومدّخرة، وشديدة الحرص، ولديها اهتمامات امرأة مقتصدة وتفهم في الأعمال، فاعترافها بهذا الإنفاق على هذه النزوة يعرضها بلا ريب -حسب تصورها- إلى أن تبدو صغيرة في عيني، فللنساء مثل هذه الأشياء اللطيفة، والحيل الفطرية في الروح.

غير أن جميع استدلالاتي لم تعد الاطمئنان إلى نفسي، كنت غيورا، وكان الشك يراودني، يمزقني، ينهشني. لم يعد مجرد شك، بل أصبح الشك عينه. كنت أحمل في نفسي ألما وقلقا رهيبا، وفكرة كانت ما تزال مغطاة بعد -بلى، كانت ما تزال فكرة يحجبها ستار- وهذا الستار لم تكن لي الجرأة لكي أرفعه، لأني سأجد تحته شكا رهيبا، سأجد عشيقا.. ألم يكن لها عشيق؟ تصور.. تصور.. كان هذا شيئا غير محتمل التصديق، مستحيلا ومع هذا؟

كان وجه "مونتينا" يمرّ أمام عينيّ باستمرار، كنت أراه، هذا الزراف ذو الشعر اللامع، وهو يبتسم في وجهها، وقلت في نفسي: "إنه هو". ورحت أتخيل قصة علاقتهما، حيث يكون قد دار الحديث بينهما حول كتاب، وناقشا مغامرة الحبّ فيه. ووجدا فيه شيئا يجمعهما، ومن هذا التماثل صنعا حقيقة.

ورحت أراقبهما وأنا فريسة لأشنع عذاب يمكن لرجل أن يتحمله.. اشتريت حذاء بنعل مطاطي لكي أمشي دون إحداث ضجيج، وصرت أمضي حياتي في صعود ونزول من سلمي الحلزوني الصغير لكي أفاجئهما، بل كنت أحيانا أزحف

بجسدي على يدي ورأسي في الأول على طول الأدراج، من أجل أن أرى ما يفعلانه، ثم يتوجب علي أن أعود فأصعد"احفا إلى الخلف، بجهد جهيد وألم ممض بعد أن ألاحظ وجود العامل معهما.

لم أعد أحيا ولكني كنت أتعذب، ولم يعد في استطاعتي التفكير في أي شيء، ولا العمل ولا الاهتمام بشؤوني. وعندما أخرج وأقطع مئة خطوة في الشارع أقول في نفسي: "إنه هناك"، فأعود فلا أجده هناك. وأخرج ثانية ولكن بمجرد أن أبتعد قليلا أعود إلى التفكير: ((لقد أتى الآن..)) وأعود على عقبي. كان هذه حالتي طوال الأيام.

أما في الليل فإن الأمر أسوأ لأني كنت أحسّ بها إلى جانبي، في سريري. كانت هناك، نائمة أو تتظاهر بالنوم.. هل كانت تنام؟ لا، دون شك، إنّها تكذب مرة أخرى.

وأبقى جامدا على ظهري، مكتويا بحرارة جسمها، لاهث الأنفاس، معذبا. آه، يا لها من رغبة تستولي علي، رغبة بشعة وقويّة في أن أنهض فآخذ شمعة ومطرقة، وبضربة واحدة أفلق رأسها لأرى ما بداخله.. كنت سأرى –أنا أعرف ذلك لو فعلت– عصيدة دم ومخ ولا شيء أكثر. لن يكون في استطاعتي أن أعرف، مستحيل أن أعلم!

وعيناها حينما تنظر إلي. كانت تنتابني منها نوبات جنون.. أنظر إليها، تنظر إليّ، عيناها شفافتان بريئتان، ولكن تلك شفافية وبراءة مزيفة، مزيفة، مزيفة. إننا لا نستطيع معرفة ما تفكر به

وراء ذلك المظهر.. كانت لديّ رغبة في أن أغرز إبرا بداخلها، أن أفقأ تلك المرايا الكاذبة.

آه، كم أه، وأنا آسف لأجلك.

وإذن فقد كنتُ مخطئا. كان الأمر أسوأ مما ظننت، وأردأ من كل شيء.. استمع إلي. لقد استعملت الوسيلة التي تستعمل دائما، كنت أتظاهر بالغياب، وفي كلّ مرّة كنت أبتعد فيها كانت زوجتي تتناول الغذاء في الخارج، ولن أحكي لك كيف اشتريت ذمة خادم المطعم لكي أفاجئها.

كان عليه أن يترك لي باب غرفتهما مفتوحا، ووصلت في الوقت المناسب، وأنا مصمم تصميما تاما على قتلهما. وكنت منذ الأمس أرى المشهد كما لو أنه حدث بالفعل: أدخل فأرى طاولة صغيرة مغطاة بالكؤوس والقارورات والأطباق تفصلها عن "مونتينا" فيتفاجآن إلى درجة أنهما يبقيان بلا حراك. أما أنا، وبدون أن أنبس بكلمة، أنزل بعصاي الرصاصية التي أكون مسلحا بها على رأس الرجل، فيصرع بضربة واحدة ويخر بوجهه على غطاء المائدة. وحينئذ ألتفت إليها وأترك لها بعض الوقت، بضع ثوان لتستوعب الموقف، وترفع يديها نحوي متضرعة، وقد جنت من الرعب قبل أن تموت بدورها.

لقد كنت مستعدا، وقويا، وشديد التصميم، وراضيا، راضيا إلى حد السكر. إن تصوري لنظرتها الزائغة التي ستلقي بها نحوي وهي تحت العصا المرفوعة، وليديها المبسوطتين إلى الأمام، ولصراخ حلقها، ولوجهها الذي سيشحب فجأة

ويتشنج، سينتقم لي منها مسبقا، ولن أقتلها من الضربة الأولى. إنك تجدني متوحشا، أليس كذلك؟ إنك لا تدرك مدى تألّمنا.. تخيل امرأة،"وجة كانت أو عشيقة تحبها، تقدم جسدها لشخص آخر، وتسلم نفسها له مثل ما تسلم نفسها لك، وتقبل شفتيه كما تقبل شفتيك، إنه شيء فظيع وغير محتمل، فعندما نعرف في يوم ما مثل هذا العذاب سنكون قادرين على فعل أي شيء. إنني أتعجب أن لا يُقدِم الناسُ كثيرا على القتل، لأن كلّ من خُدعوا يكونون قد رغبوا في القتل، ويستمتعون كلهم بتلك الميتة التي حلموا بها، وقاموا بحركة خنق أو قتل، وهم على انفراد في غرفهم، أو وهم في طريق مهجور، تسكنهم هلوسة الانتقام الشافي للغليل.

حضرتُ إلى المطعم وسألتُ الخادم الذي اشتريت ذمته: "هل هما هنا؟" وأجاب الخادم: بلى، سيّدي، وأراني سلما، وبابا، ثم قال: "هنا".. أمسكت عصاي بقوة كما لو كانت أصابعي من حديد ثم دخلت، كنت قد اخترت اللحظة المناسبة، كانا يتبادلان القبل، غير أنه لم يكن "مونتينا"، وإنما كان "الجنرال دوفليش"، الجنرال الذي بلغ السادسة والستين من العمر. كنت أتوقع رؤية الآخر، حتى إنني بقيت مسمرا في مكاني من الدهشة، ثم ثم، لا أدري ماذا حدث بداخلي، نعم.. لا أدري، فأمام الآخر كنت سأتشنج من الغضب، أما أمام هذا الشيخ البارز البطن، ذي الخدين المترهلين، فقد اختنقتُ من شدة القرف.. منها، هي الصغيرة التي تبدو في الخامسة عشر من عمرها، تقدم نفسها لهذا الرجل الضخم، المدلل تقريبا، لأنه كان "الجنرال الماركيز" صديق وممثل الملوك المخلوعين.. لا،

لم أدرك ما أحسست به، ولا ما كنت أفكر فيه، قد تكون يداي قد عجزتا عن ضرب هذا الشيخ.. يا للعار.. أو ليس هذا.. لم تعد لي رغبة في قتل زوجتي، ولكن الرغبة في قتل جميع النساء "اللواتي في استطاعتهن القيام بفعل شيء كهذا.. لم أعد غيورا، كنت مضطربا كما لو أنني رأيت أبشع البشاعات.

ليقولوا ما يريدون عن الرجال فهم ليسوا دنيئين إلى هذا الحد. عندما نلتقي واحدا يقدم نفسه بهذه الطريقة، نشير إليه بالإصبع. إن زوج امرأة عجوز أو عشيقا لها يكون محتقرا أكثر من سارق. إننا أطهار يا عزيزي، أما هنّ، هن، المومسات ذوات القلب الوسخ! إنهن يعطين أنفسهن للجميع، شبابٍ أو شيوخٍ، لأسباب محتقرة ومختلفة، لأنّها مهنتهن التي برعن فيها، ووظيفتهن، إنّهن العاهرات الأبديات، الهادئات، الغافلات، اللائي يعرضن أجسادهن بلا ترفع، لأنه سلعة حبّ يبعنه أو يعطينه لعجوز يقف على الرّصيف حاملا الذهب في جيبه، أو لملوك عجائز، لأجل المجد، يتلهفون على قطف اللذة، أو لرجال مشهورين، كريهين..

وصرخ مثل رسول من العهود القديمة بصوت غاضب، تحت السماء المليئة بالنجوم، صراخ غاضبٍ يائسٍ من العار الممجد لجميع عاشقات الملوك العجائز، والعار المحترم لجميع العذراوات اللواتي يقبلن بأزواج مسنين، والعار المتسامح معه، لجميع النساء الشابات اللواتي يقطفن، وهن مبتسمات، قبلات من عجائز.

إني أرى الفتيات الجميلات ذوات الرّوح المنحطة، مثل البهائم التي تجهل سن الذكر، يستسلمن لأنواع من اللذة الخرف، أراهُن

منذ خلق العالم، مستحضرات، ومنادى عليهن منه، ينبثقن من حولنا في ليل الشرق هذا. إنهن ينشأن خادمات للملوك، تغنت التوراة بهن، مثل ابنتي لوط :"هاجر" و"روث"، والسمراء "أبيقايل"، وعذراء "سونام" التي استثارت داوود وهو يحتضر، وكل الفتيات الأخريات: السمينات، والبيضاوات، والنبيلات أو السوقيات، الإناث المستهترات المملوكات لأحد الأسياد، المستعبدات، المستسلمات، المنبهرات أو المأجورات.

وسألته: "وماذا فعلت؟"

فأجاب ببساطة : لقد رحلت، وها أنا ذا هنا.

وعندئذ بقينا جالسين مدّة طويلة، جنبا إلى جنب، نتأمل دون كلام...

لقد احتفظت من هذا المساء بانطباع لا ينسى، فكل ما رأيت، وكل ما شعرت به، وما سمعت، وما تصورته –مثل الصّيد، وأيضا الأخطبوط ربما، وهذه القصة المؤلمة وسط الأشباح البيضاء فوق سطوح الجيران– قد ساهمَ في خلق هذا الانفعال الفريد.

إن بعض المصادفات، وبعض تراكيب الأشياء التي لا تقبل التفسير، ودون أن يظهر فيها أي شيء خارق للعادة، تتضمن، بالتأكيد، كميّة كبيرة من أسرار الحياة الأثيرية، من تلك التي تتبعثر في ثنايا الحياة العادية.

السلسلة العربية *

غي دي موباسان

Guy de Maupassant

Mohammed Fripouille

سألني النقيب: أتتناول القهوة على سطح البيت؟ فأجبت: بالتأكيد.. فنهض، وكانت القاعة قد أعتمت، حيث كانت تتلقى النور من الصحن الداخلي ذي الطراز المغربي. وكانت تتدلى من السطح، أين كنا نُمضى أماسي الصيف الحارة، نباتات معرشة على النوافذ العالية ذات الأقواس.

لم يبق على الطاولة إلا الفاكهة، فاكهة إفريقيا الضخمة، مثل العنب الذي يبلغ حجمه حجم البرقوق، والتين الطري ذي القشر البنفسجي، والكمثرى الأصفر، والموز الطويل الدسم، وتمر تُقُّرت[96] في سلة من الحلفاء.

فتح الخادم المغربي الباب فصعدت السلم ذا الحائط الأزرق الذي كان يتلقى الضوء اللطيف للنهار المحتضر من فوق، وحين بلغتُ بعد لحظات سطح البيت أخرجت زفرة سعادة عميقة.. كان البيت يشرف على مدينة الجزائر وعلى المرسى والأرصفة والشواطئ البعيدة.

* من مجموعة "YVETTE R" وتحمل في الأصل عنوان: "Mohammed fripuille".

96) تقرت هي إحدى مدن الجنوب الشرقي الجزائري، وهي تابعة اليوم لولاية ورقلة.

كان البيت الذي اشتراه النقيب بيتا عربيا قديما، يقع في قلب المدينة القديمة، بين تلك الأزقة الملتوية حيث لا تهدأ حركة الدهماء الغريبة لشواطئ إفريقيا. كانت سطوح المنازل المستوية، والمربعة تنحدر من تحتنا كمدرج عملاق إلى غاية السقوف المائلة للمدينة الأوروبية، ومن ورائها تبدو صواري السفن الراسية، ثم البحر الفسيح، الأزرق، الهادئ، تحت سماء هادئة زرقاء.

تمددنا على حصائر وأسندنا رؤوسنا إلى طنافس. وفي الوقت الذي كنا نشرب فيه القهوة المحلية ذات النكهة العالية كنت أشاهد النجوم الأولى وهي تنبثق في السماء المعتمة. وكانت في هذا الوقت تبدو إلى حد ما بعيدة وباهتة وبالكاد تبدو مضيئة.

كانت هناك حرارة خفيفة مجنحة تداعب إهابنا، وأحيانا كانت تصلنا هبّاتٌ أكثر حرارة وأشد وطء، محملة برائحة غير محددة، رائحة إفريقيا التي تبدو كأنها نفَس الصحراء القريبة، يأتي عبر قمم الأطلس.

قال النقيب، الذي كان نائما على ظهره: ياله من بلد يا عزيزي. كم هي الحياة لذيذة فيه، وكم للراحة فيه من طعم خاص ومن لذة، وكم هي هذه الليالي مهيأة للأحلام.

كنت ما أزال أتابع ميلاد النجوم بفضول مرتخٍ ونشط في الوقت نفسه، في سعادة غافية، وهمهمت قائلا: لابدّ أن تحكي لي شيئا عن حياتك في الجنوب.

كان النقيب "ماريت"، أحد أقدم جنود إفريقيا في الجيش، ضابطا ذا رصيد، وصبائحيا قديما[97] حصل على رتبته بقوة

97) صبائحي Spahi معناه فارس جزائري أو تركي، والكلمة عربية الأصل كما هو واضح، وقد احتفظ الفرنسيون بهذه التسمية بعد الاحتلال، فكانوا يطلقونها على فرق المرتزقة من الجزائريين، ثم عمم الاسم على غير الجزائريين.

ساعده، وبفضل علاقاته وصداقاته استطعت أن أقوم برحلة رائعة في الصحراء، وقد جئت هذا المساء لأقدم له شكري قبل رجوعي إلى فرنسا.

قال لي: أي نوع من الحكايات تريد؟.. لقد حصلت لي مغامرات كثيرة أثناء أعوام الرمل الاثنتي عشرة التي قضيتها هناك، بحيث أنني لا أتذكر واحدة بعينها.

فاستأنفت قائلا: حدِّثني عن النساء العربيات.

ولم يجبني. ظل ممددا، ثانيا ذراعيه، ومتوسدا يديه تحت رأسه. وكنت بين الفينة والأخرى أشم رائحة تبغه الذي كان دخانه يتصاعد في السماء عموديا في هذه الليلة التي لا نسمة فيها. وفجأة راح يضحك: آه.. بلى، سوف أحكي لك أحد أطرف الأحداث التي يعود تاريخها إلى بدايات وجودي في الجزائر.

كان لنا آنذاك في جيش إفريقيا نماذج من الجنود خارقين للعادة، ما عدنا نكوِّن أشباها لهم اليوم، نماذج يعجبونك، ويجعلونك ترغب في قضاء كل حياتك في هذا البلد.

كنت صبائحيا بسيطا، حدَثا، في العشرين من العمر، غضا في غير ضعف، ومرنا في عنف. كنت يا عزيزي أحد جنود الجزائر بحق. ألحقوني بالقيادة العسكرية لـ"بوغار"، وأنت تعرف بوغار، هذا الذي يطلقون عليه اسم شرفة الجنوب. لقد شاهدتَ من أعلى الحصن بداية بلد النار، ذلك البلد المتآكل، الأجرد، الكثير التضاريس والحجارة، الأحمر. ذلك بالتحديد هو عتبة الصحراء، والحد الملتهب والشامخ لمنطقة الصمت الأصفر الشاسعة.

كنا إذن في بوغار، نحو أربعين صبائحيا، أو كتيبة من ذوي "البال الخالي" كما كان يطلق عليهم، بالإضافة إلى فصيل من "قناصة إفريقيا". بلغ إلى علمنا ذات يوم أن قبيلة "أولاد برغي" قد اغتالت رحالة إنكليزيا، لا ندري كيف جاء إلى هناك، فالإنكليز يحملون الشيطان في أجسادهم. وكان لابد أن نقتص لهذه الجريمة التي راح ضحيتها أحد الأوروبيين، غير أن القائد الأعلى للموقع تردد في إرسال مفرزة، مقدِّرا أن إنكليزيا لا يستحق تحركا بذلك الحجم. وفي تلك الأثناء التي كان القائد يتحدث فيها عن ذلك مع النقيب والملازم الأول صادف أن كان رقيب من الصبايحية هناك، جاء ليقدم تقريرا، فتدخل في الحديث ليقترح على القائد الذهاب لتأديب القبيلة لو هو بعث معه بستة أنفار لا غير.

والجنود في منطقة الجنوب غير أحرار في تنقلهم، كما تعرف، إلا في نطاق المحميات العسكرية الموجودة في المدن، ولكن يوجد بين الضابط والجندي نوع من عدم الكلفة لا نجده في مكان آخر، فانخرط النقيب في الضحك، وقال ساخرا:

– أنت يا بطل؟

– نعم، يا حضرة النقيب.. وإذا رغبت أحضرت لك القبيلة كلها أسيرة.

فأمسكه القائد من لسانه – وكان صاحب نزوات – قائلا له :

– ستغادر غدا صباحا ومعك ستة رجال تختارهم بنفسك، فإذا لم تنجز وعدك تكون قد جنيت على نفسك.

ورد عليه ضابط الصف، مع ابتسامة من وراء شاربه:

- لا تخش شيئا يا حضرة القائد، إن أسراي سيكونون هنا يوم الأربعاء في منتصف النهار على الأكثر.

كان هذا الرقيب، الذي كنا نناديه "محمد فريبوي"[98] رجلا مدهشا بحق، كان تركي الأصل، تركيا حقيقيا، دخل في خدمة الجيش الفرنسي بعد حياة مضطربة جدا وغير واضحة، ساح، بلا ريب، في أماكن كثيرة، في اليونان، وفي آسيا الصغرى، وفي مصر، وفي فلسطين، وترك آثارا كثيرة، غير طيبة بلا ريب، في طريقه. كان "باشي بوزوق" حقيقيا[99] جريئا، مزواجا، متوحشا، مرحا مرح الشرقي الهادئ. وكان ضخما، شديد الضخامة، لكنه كان مرنا مرونة القرد. كان يركب الحصان بطريقة ساحرة، وكان شارباه الكثان الطويلان بشكل لا مثيل له يثيران في نفسي دائما صورة مشوشة للهلال والسيف المعقوف معا. كان يبغض العرب بغضا "ائدا عن كل حد، وكان يعاملهم بقسوة مرائية وبشعة، ويستنبط لذلك حيلا جديدة باستمرار، وألوانا من الخدع المحسوبة والرهيبة. وكان يتمتع أيضا بقوة بدنية لا تصدق، وبجرأة لا مثيل لها.

قال له القائد: اختر رجالك، يا عملاقي.. وكنت ممن اختارهم محمد. كان هذا الفحل يثق بي، وقد بقيت مخلصا له جسدا وروحا، بسبب هذا الاختيار الذي أبهجني بالقدر الذي أبهجني "صليب الشرف" الذي حصلت عليه بعد ذلك.. وعليه فقد غادرنا المكان في صبيحة اليوم التالي مع الفجر، نحن السبعة، ولا شيء سوى نحن.

98) فريبوي، تعني بالتقريب: الخفيف الحركة أو صاحب الجسم المرن.
99) باشي بوزوق، عبارة تركية معناها: جندي متطوع، غير دائم في الجيش.

كان رفاقي من رجال العصابات وقطاع الطرق، الذين انتهوا بعد أعمال اللصوصية والتشرد في كل الأصقاع الممكنة إلى الخدمة في أحد فيالق اللفيف الأجنبي، وقد كان جيشنا الإفريقي مليئا بهؤلاء الأنذال، فكانوا جنودا ممتازين ولكن لا ضمير لهم.

كان محمد قد حمَّل كل واحد منا حوالي عشر قطع من الحبال، بطول متر تقريبا للقطعة الواحدة، وحمَّلني بالإضافة إلى ذلك – بوصفي أصغر الرجال وأخفهم حملا– حبلا كبيرا كاملا، بطول مئة متر. وحينما سئل عما يريد أن يصنع بكل ذلك الحبل، أجاب بأسلوبه المرائي والهادئ:

– إنه للصيد على الطريقة العربية، وغمز بعينه في خبث، بحركة كان قد أخذها عن أحد قناصة إفريقيا الباريسيين السابقين.

كان يسير على رأس مجموعتنا متعمما بعمامة حمراء، كان حريصا على حملها معه، وكان يبتسم في جذل بشاربيه الضخمين. كان جميلا حقا، هذا التركي العريض، ببطنه البارز، ومنكبيه العملاقين، وهيئته المطمئنة. كان يمتطي جوادا أبيض، متوسط الهيئة ولكنه صلب، فكان الفارس يبدو أضخم عشر مرات من مطيته.

كنا نعبر واديا صغيرا، كثير الحجارة، أجرد، أصفر، ينحدر نحو سهل الشَّلف، وكنا نتحدث عن مهمتنا تلك، وكان في نطق رفقائي كل أنواع اللهجات الممكنة، فقد كان من بينهم إسباني، ويونانيان، وأمريكي، وثلاثة فرنسيين، أما محمد فريبوي فقد كان يلثغ الراء بكيفية لا تصدق.

كانت الشمس الرهيبة -شمس الجنوب التي لا نعرف لها مثيلا في الجانب الآخر من البحر- تسقط على أكتافنا، وكنا نتقدم خطوة خطوة، كما هو الشأن هناك دائما. ومشينا طوال النهار دون أن نصادف شجرة واحدة أو نقابل عربيا. وفي حوالي الساعة الواحدة بعد الزوال، وبالقرب من نبع ماء كان يسيل بين الأحجار، أكلنا الخبز ولحم الضأن الجاف الذي حملناه معنا في مزاودنا.

وبعد حوالي عشرين دقيقة من الراحة، استأنفنا طريقنا.

وأخيرا، وفي حوالي الساعة السادسة مساء، وبعد أن لفَّ بنا قائدنا لفا طويلا، اكتشفنا خلف أكمة، قبيلة مخيمة هناك. كانت الخيام الداكنة المنخفضة تشكل بقعا سوداء على الأرض الصفراء، كفطر الصحراء الكبير الذي كان نابتا عند قدم تلك الأكمة الحمراء التي فحَّمتها الشمس. كان هؤلاء القوم هم مقصدنا. وبعيدا عنهم قليلا كانت خيولهم مربوطة، ترعى على حافة منبسط من الأرض تكسوه حلفاء داكنة الخضرة.

أصدر إلينا محمد أمره بالهجوم، فانقضضنا عليهم كالإعصار وسط الخيام، فأسرعت النساء اللائي كن يغطين أجسادهن بأطمار بيضاء تتدلى عليهن، وتخفق من حولهن، فزِعات إلى جحورهن النسيجية، زاحفات، منحنيات، صارخات كالحيوانات حين تقع في شباك الصيد. أما الرجال فقد خرجوا، على العكس من ذلك، من كل حدب وصوب، بنيَّة الدفاع عن أنفسهم، فمضينا رأسا إلى أعلى الخيام، وهي خيمة الآغا[100]،

---

100) الآغا كلمة تركية كان الفرنسيون يطلقونها على عملائهم من الجزائريين، وتعني: نائب الحاكم أو المتصرف الإداري الفرنسي، والكاتب يستعملها هنا في غير محلها -جهلا منه لمعناها- حين يطلقها على رئيس القبيلة.

مبقين على سيوفنا في أغمادها، مثل محمد الذي كان يركب بطريقة متميزة، يظل فيها ثابتا تماما، معتدل الجلسة على حصانه القميء، الذي يظل يكدح تحت ثقله، كأنه غاضب من الثقل الذي يحمله، حيث يبدو هدوء الفارس ذي الشاربين الطويلين متعارضا بشكل غريب مع حيوية الحيوان.

خرج رئيس القبيلة إلينا حين وصلنا أمام خيمته، وكان رجلا طويلا نحيلا، شديد السمرة، له عينان براقتان، وجبهة بارزة، وحاجبان كقوسي دائرة. صرخ فينا باللغة العربية: ماذا تريدون؟

ورد عليه محمد، الذي أوقف حصانه بحركة واحدة:

– أأنت الذي قتلت الرحالة الإنكليزي؟

فأجابه الآغا في صوت فظ:

– ليس لك علي أي حق لتستجوبني.

وكان من حولنا ما يشبه عاصفة مزمجرة. كان العرب يعْدُون من كل الجهات، ويحاصروننا، ويغلقون علينا كل المنافذ، ويصرخون. كانت لهم هيئة الطيور الجارحة بأنوفهم المعقوفة وسحناتهم النحيفة البارزة العظام وألبستهم الفضفاضة التي تضطرب مع حركاتهم.

ابتسم محمد من تحت عمامته المستعرضة وعينه المستفزة، وارتسمت على وجنتيه المتهدّلتين بعض الشيء، السمينتين، المتجعدتين، ما يشبه قشعريرة اللذة، ثم رد عليه بصوت راعد غطّى على الأصوات الأخرى:

– القتل لكل من يقتل.

ومد يده نحو وجه الآغا الأسمر، ورأيت قليلا من الدخان يخرج من الماسورة، ثم رأيت رغوة المخ والدم تتفجر من جبهة الرئيس، فسقط مصعوقا على ظهره، فاتحا ذراعيه، رافعا بهما طرفي برنسه المرفرفين كجناحي طائر.

وظننت حينها أن آخر يوم في حياتي قد أزف بسبب ما حدث حولنا من هرج ومرج. وكان محمد قد جرد سيفه، ففعلنا فعله، وصرخ، مُزيحا في حركة دائرية أقرب المحيطين به: الأمان لكل من يستسلم، والموت للباقين.

ثـم أمسك بـقـبضـتـه الـهـرقـلية أقرب رجل إليه، وأرقده على سرجه، وصاح فينا، وهو يقيد له يديه : افعلوا مثلي، واضربوا بالسيف كل من يقاوم.

وفي ظرف خمس دقائق قبضنا على حوالي عشرين عربيا، وقيَّدنا أيديهم تقييدا محكما، ثم رحنا نلاحق الفارين، لأنهم كانوا قد افرنقعوا من حولنا بمجرد أن شهرنا سيوفنا، فأعدنا حوالي ثلاثين رجلا آخر. وكنا نشاهد عبر كامل السهل أشياء بيضاء تعدو، إنهن نساء القبيلة، كنَّ يجررن أطفالهن، ويطلقن صرخات حادة، وكانت الكلاب الصفراء، الشبيهة ببنات آوى، تحوم من حولنا نابحة، وتبرز لنا أنيابها الصفراء.

وقفز محمد من فوق حصانه، وقد بدا عليه كأنه جُن من الفرح، وأمسك الحبل الذي كنت أحمله، وقال لنا: انتبهوا هنا يا أبنائي. ليترجَّل اثنان منكم. وقام حينها بفعل رهيب ومضحك. قام بصنع سبحة من الأسرى، أو على الأصح، سبحة من المشنوقين.

قام بتقييد يدي الأسير الأول تقييدا محكما، ثم عقد حول عنقه أنشوطة زلاقة، وبالحبل ذاته قيَّد ذراعي الأسير الثاني وأحاط عنقه، وبه قيَّد يدي الأسير الذي يليه ولفه حول عنقه، وهكذا. وفي ظرف قصير صار أسرانا الخمسون مربوطين إلى بعضهم بعضا بطريقة تجعل الواحد منهم يخنق نفسه بمجرد صدور أدنى حركة منه للهرب، ويخنق معه جاريه. كانت كل حركة تصدر عنهم تضغط على الأنشوطة المنزلقة التي تحيط برقابهم، فكان عليهم أن يمشوا بخطوات متساوية، دون أن يبتعد أي منهم بشيء عن الآخر، حتى لا يسقط على أثر ذلك كالأرنب البرِّي في الأحبولة.

حين انتهى محمد من هذه المهمة راح يضحك ضحكته الصامتة التي تجعل بطنه يهتز دون أن يصدر فمُه أي صوت، ثم قال: هذه هي السلسلة العربية.

وأخذنا نحن أنفسنا ننثني من الضحك أمام وجوه الأسرى المرعوبة والمتضرعة. وصاح فينا القائد:

- والآن أيها الأبناء، اربطوا وتدا في كل طرف من السلسلة.

وقمنا فعلا بربط وتد في كل طرف من طرفي هذا الشريط من الأسرى، الذي تحول بسبب لباسهم الأبيض إلى ما يشبه شريطا من الأشباح. وظلوا ساكنين كأنما مسخوا في هيئة أحجار.

- إلى العشاء الآن، قال لنا التركي، فأشعلنا النار، وطبخنا شاة، وقطعناها بأيدينا، ثم أكلنا تمرا عثرنا عليه في الخيام، وشربنا لبنا حصلنا عليه بالكيفية ذاتها، كما جمعنا بعض الحلي الفضية التي تركها الفارون وراءهم. وحين أنهينا بكل هدوء وجبتنا،

لمحت على الربوة المقابلة تجمعا مريبا. كان التجمع يتشكل من النسوة اللائي فررن قبل قليل، ولا شيء غير النسوة، جئن يجرين نحونا، فنبّهتُ محمد فريبوي لمقدمهن، فتبسم وهو يقول: سيكُنَّ لنا الفاكهة، نعم، الفاكهة.

أقبلن يهرولن كالمخبولات، وبعدها أمطرننا بوابل من الحجارة. كن يحصبننا دون أن يتوقفن عن الجري، ولاحظنا أنهن كن مسلحات بالخناجر، وبأوتاد الخيام، وبالأواني القديمة، فصاح محمد فينا: اركبوا، إنه الوقت الملائم.

كان الهجوم ماحقا. لقد جئن لتخليص الأسرى وقطع الحبل. وأحس التركي بالخطر فتملكه الغضب، وصاح فينا: اضربوا بالسيف، بالسيف، بالسيف.

وحينما ظللنا بلا حراك، مضطربين أمام هذا الأمر الغريب من نوعه، ومترددين في قتل النساء، اندفع هو نحو تجمع المهاجمات، وتكفل بمفرده بذلك الفيلق من الإناث المتسترات بالأطمار، فراح الصعلوك يضرب بسيفه كالمجنون، يضرب بعنف وباندفاع إلى درجة أننا كنا نشاهد سقوط جسم أبيض عقب كل حركة من ذراعه.

كان رهيبا إلى درجة أن النساء فررن لاهثات، بسرعة أقوى من السرعة التي أقبلن بها، تاركات وراءهن حوالي اثني عشرة قتيلة وجريحة، وقد لطخ الدم ثيابهن الباهتة.

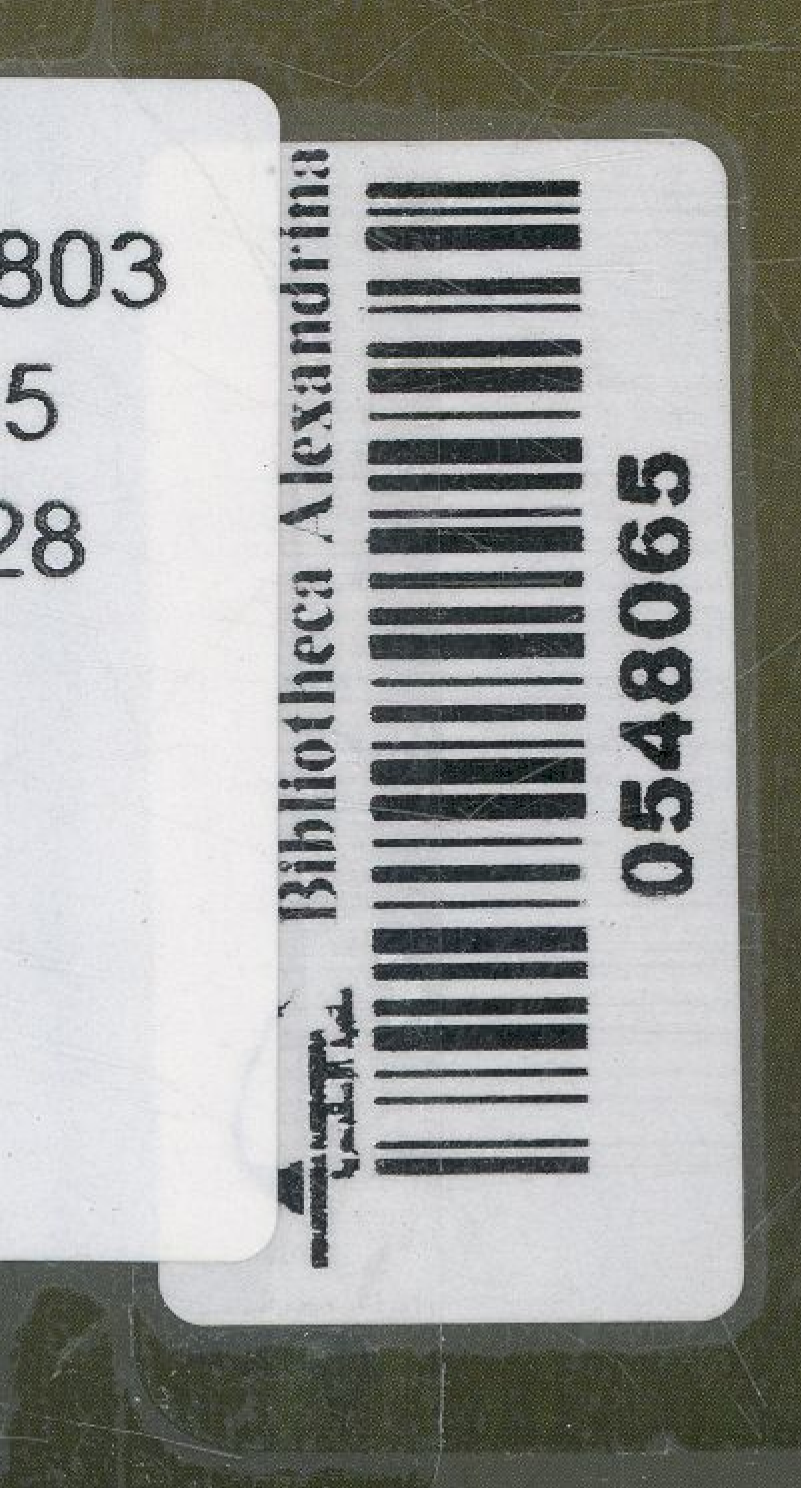
وعاد محمد إلينا وقد تغير وجهه وهو يردد:
– لنسرع يا أبنائي، لنسرع، إنهن سيعُدن.

فشرعنا ننسحب، ونقود أمامنا أسرانا، الذين كانوا يسيرون بخطى ثقيلة، وقد شلهم الخوف من الموت خنقا.

عندما دقت ساعة الظهيرة من اليوم التالي، كنا قد وصلنا إلى بوغار، ومعنا سلسلة من المشنوقين. لم يمت منهم في الطريق إلا ستة، غير أنه كان علينا في الكثير من المرات، توسيع العُقد من الطرف إلى الطرف الآخر للقافلة، لأن كل تعثر لها كان يخنق ما لا يقل عن اثني عشر أسيرا دفعة واحدة.

وسكت النقيب.. ولم أقل شيئا. كنت أفكر في هذا البلد الغريب الذي تحدث فيه أشياء من هذا القبيل. ثم رحت أتابع في السماء المظلمة قطيع النجوم المتلألئة التي لا تحصى.

سحب الطباعة الشعبية للجيش
الجزائر – 2007



ISBN 978-9947-24-275-9

